لجنة البيان العربي

أثر الشرق في الغرب

خاصة في العصور الوسطى

للمستشرق الألماني جورج يعقوب

ترجمه بتصرف

دكتور
فؤاد حسنين علي
مدرس بكلية الآداب
جامعة فؤاد الأول

القاهرة
مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)
١٣٦٥ — ١٩٤٦

لجنة البيان العربي

أثر الشرق في الغرب

خاصة في العصور الوسطى

للمستشرق الألمانى جورج يعقوب

ترجمه بتصرف

دكتور
فؤاد حسنين علي
مدرس بكلية الآداب
جامعة فؤاد الأول

القاهرة
مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
٤٠ شارع نوبار باشا (سابقاً شارع الدواوين)
١٣٦٥ — ١٩٤٦

مقدمة

وهذا مثل آخر من أمثلة أبناء الغرب الذين عنوا بدراسة الشرق والشرقيين ، فأغنوا المكتبة العربية بكثير من بحوثهم الفنية ، ونشروا من المخطوطات أمهات المصادر العربية من شعرية ونثرية ، وأصبحنا نحن أبناء العربية ندين لهم فى نهضتنا الحديثة بالكثير مما وصلنا إليه .

وقد ولد « چورچ يعقوب » مؤلف هذا الكتاب فى ٢٦ مايو سنة ١٨٦٢ بمدينة (كونيجزبرج) بألمانيا ، وعنى منذ صغره بالدراسات الشرقية واللاهوتية ، إلا أنه انصرف عن الأخيرة وتفرغ للغات الشرقية والجرمانية وعلم معرفة الشعوب ، فدرس فى (ليبزج) و (شتراسبورج) و (برسلاو) و (برلين) و (ارلنجن) و (جريفسفلد) على جمهرة من مشاهير مستشرقى ألمانيا فى ذلك العصر أمثال : (رويس) و (نولدكه) و (فليشر) و (الورد) ، وكانت الفكرة السائدة عن الشرق العربى فى ذلك الوقت لا تتفق وماضينا السعيد وعصورنا الذهبية ، فالجامعات الأوربية كانت تمهد أو تخدم الرغبات الاستعمارية ، وجرفها تيار السياسة فغفلت أو تغافلت عن البحث العلمى الصحيح المجرد من الغايات . اللهم إلا هذا النفر القليل من بعض المستشرقين الذين تتلمذ عليهم « چورچ يعقوب » وتأثر بآرائهم ، فقد أدرك أولئك العلماء أن الشرق وإن دبت فيه عوامل الضعف والإنحلال وأصبح نهباً بين بعض الدول الغربية إلا أنه كان فى العصور الوسطى معلم أوربا وإليه يرجع الفضل فى نهضتنا المتأخرة . لذلك نجد « چورچ يعقوب » يأخذ على عاتقه العمل على دراسة هذا الموضوع وإيفاء كل ذى حق حقه ، وقد لاقى خصومات شديدة من المستعمرين

أولا ، الذين كان جل همهم تحطيم الشرق مادياً وروحياً ، وأنصار الدراسات القديمة أعنى المدرسة الكلاسيكية التى كانت تشيد بمجد اليونان وترجع كل عوامل الرقى الأوربى إلى اليونان واليونانيين ثانياً . وقد نجحت هذه المدرسة سياسياً فحررت اليونان من تركيا وجمعت الشعوب الأوربية على هدف واحد ألا وهو وجوب التعاون سوياً والوقوف معاً فى وجه الشرق والشرقيين ، وقد ظهرت آثار تلك المدرسة فى أوائل القرن التاسع عشر وفى وقوف أوربا لمحمد على بالمرصاد وفى خلق المسألة الشرقية .

فى هذه البيئة كان يحيا « چورچ يعقوب » وكان برماً بهذه الحياة قلقاً لأنه كان يؤمن إيمانا صادقا بعظمة الشرق ومجده خاصة الشرق العربى الذى انبعثت منه فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد الأبجدية الكنعانية التى استعارها اليونان فالرومان فسائرالشعوب الغربية ، وغير الأبجدية أخذ الغرب عن البابليين الأشوريين كثيراً من مقومات الحضارة اليونانية القديمة ، ولم يمض زمن طويل حتى ظهرت المسيحية وشقت طريقها إلى أوربا فاستعمرت العقلية الأوربية استعماراً مازال إلى يومنا هذا قائماً . وغير الأبجدية والدين فالشرق كما شعر « چورچ يعقوب» وأدرك هو معلم أوربا ومهذبها فى العصور الوسطى ، لذلك كرس حياته لتحقيق هذه الرسالة فلاقى عنتاً من المغرضين وإعجاباً وتقديراً من المنصفين . أقدم هذا العالم الشاب على منازلة خصومه مزوّداً بمختلف أدوات البحث ، فهو قبل كل شىء مؤمن برسالته مقتنع بصحة هذه المبادىء التى لقنته إياها الصفوة المختارة من رجال الإستشراق الألمان ، وكان أن قدم المؤلف نفسه بكتاب هو باكورة أعماله عالج فيه البضائع التى كان العرب يستوردونها من البلاد الشمالية البلطيقية ، وظهر هذا الكتاب عام ١٨٨٦ فلفت إليه الأنظار ثم أردفه فى العام التالى برسالة نال بها اجازة الدكتوراه

أمام جامعة « ليبزج » وموضوعها « التجارة العربية فى العصور الوسطى مع البلاد الشمالية البلطيقية » . ومنذ ذلك الحين ونحن نرى عالمنا هذا يوجه جل عنايته إلى كل ماهو شرقى فدرس نبات الشرق وحيوانه دراسة دقيقة حتى قال المستشرق العظيم (فلهوزن) مرة : يجب على حكومتنا الألمانية أن تقيم حديقتين لحيوان الشرق ونباته وتعين « چورج يعقوب » مديراً لهما : وإلى جانب عنايته بعلمى الحيوان والنبات أصدر كثيراً من المؤلفات حول أثر الشرق فى الغرب ، وجغرافيي العرب ، وشعرائهم كما نشر كثيراً من التقارير العربية التى ترجع إلى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين عن المدن والأقاليم الألمانية . أما كتابه عن « حياة البدو فى العصر الجاهلى » فيعتبر من خيرة الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع ، وللمؤلف علاوة على هذا الكتاب مؤلفات أخرى فى المعلقات ولامية العرب التى نشرها وترجمها إلى الألمانية كما درسها دراسة مقارنة وذكر جميع المراجع التى تعرضت لها . أما بحثه الخاص بتبسيط بعض قواعد النحو العربى والذى نشره عام ١٩٠٨ ، ودراسته للتوراة ومقارنته سفر نشيد الأناشيد بالشعر العربى فمن أهم الأبحاث التى عرض لها مستشرق .

لم يقف مجهود «جورج يعقوب» عند هذا الحد بل اهتم بالمسرح العربى ، واستطاع بعد جهد عظيم كلفه دراسة السنسكريتية والصينية تأريخ هذا الفن المسرحى المعروف بخيال الظل، وكان أول عهده به عام ١٨٩٢ عندما سافر للمرة الأولى إلى استنبول دارساً للحياة التركية ، ووقع نظره هناك عليه حيث كان يعرض فى شهر رمضان ، ومنذ ذلك الحين ونحن نرى هذا العالم مكباً على دراسته والبحث عنه فاتسع أمامه ميدان البحث وامتد شرقاً حتى بلغ الصين واليابان وغربا حتى إيسلنده ، وقد عثر على كثير من المسرحيات العربية التى ألفت خصيصاً لهذا النوع من التمثيل ، ولعل أحسن

شخصية اهتدى إليها هي شخصية محمد بن دانيال[1] . وفى عام ١٩٣٠ اتفق مع مستشرق آخر وهو (پول كالا) على النهوض بإصدار مجموعة من الكتب تدور حول هذا النوع من الأدب العربى وقد وفقا توفيقاً عظيماً . أما كتاب « چورچ يعقوب » عن خيال الظل وتاريخه فيعتبر الوحيد والأول من نوعه .

ولم يكن هذا المستشرق العظيم فارس ميدان الأدب العربى فحسب بل كان من طلائع المستشرقين الألمان الذين وجهوا همتهم إلى الدراسات التركية فثبتوا قواعدها أيضاً «فجورج يعقوب» هو الذى جعلها مادة أساسية بعد أن كانت إضافية ، وهو صاحب المكتبة التركية التى نشر منها ما يربو على ست وعشرين مجلداً ، وهو الذى كتب كثيراً عن الشعب التركى وآدابه قديمها وحديثها ، وهو أول من عنى بدراسات الدين الإسلامى وأثره فى الشعب التركى فألف فى الدراويش والبكتشية ، وأوجد العلاقة بين هذه الفرق و بين الديانات السامية وثنيها ومُنْزَلها ، ونشر من الوثائق التركية القديمة الكثير خاصة ما يتصل منها بتاريخ المجر (توركيا إدارة سند مجارستان) كما نشر ديوانين أحدهما لمحمد الفاتح وثانيهما لسليمان القانونى .

أما حظ الفارسية من عنايته فلم يكن أقل من حظ العربية والتركية وغيرهما من اللغات الشرقية ، فقد عنى بها عندما عرض لدراسة التصوف الإسلامى ، كما درس حافظ ونظامى وترجم إلى الألمانية الكثير من القطع النثرية الفارسية فى بحثه عن ناصر الدين شاه ورحلته إلى كربلاء ، كما اهتم أيضاً بالسجاد وتاريخه .

وفى ٤ يولية سنة ١٩٣٧ توفى هذا العلامة بعد أن ترك للعالم عشرات الكتب ، ومئات الابحاث ، والكثيرين من التلاميذ وعلى رأسهم (أنوليتمان) الذى عرفته الجامعة

---

(١) راجع الثقافة العدد ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ حيث نشرت شيئاً من حياة ابن دانيال ومسرحياته .

المصرية فى عهديها الأهلى والحكومى أستاذاً ، ومجمع فؤاد الأول للغة العربية عضواً ممتازاً .

ودع هـذا المستشرق العظيم العالم بعد أن أدى رسالته ، فالفكرة التى هيمنت عليه طالباً وأستاذاً ومؤلفاً قد تحققت فى كتابه — أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى — ففى هذا الكتاب نقرأ صورة صادقة لمختلف العوامل النفسية التى كانت تتنازعه ، كما تتجلى لنا عبقرية العالم ، ودقة الباحث ، وتنوع الثقافات . هنا لا يقنع « چورچ يعقوب » ببيئة واحدة وشعب واحد وعصر واحد بل نراه يتنقل بالقارىء من اليابان إلى الصين و بلاد التبت والهنـد و إيران فبلاد العرب وسائر الأصقاع الإسلامية حتى يعبر البحر الأبيض المتوسط إلى أوربا و يصورها لنا وقد وقفت تستقبل الحضارة والثقافة وسائر العناصر الأساسية لقيام المدنية الغربية ، وهو فى هـذا العرض يتفنن فى هدم آراء المدرسة الكلاسيكية كما يصفع خصوم العرب الصفعات المتواليـة بإظهار فضل أبنـاء الجزيرة المباشر أو غير المباشر على الإنسانية . فالغرب مدين للشرق فى كثير من كمالياته وأولياته ، الغرب مدين للشرق فى مأكله وملبسه وحتى فى مشربه فالقهوة العربية قهرت المشروبات الأوربية المحلية كما أصبح الشاى الصينى أو غيره شراب الكثيرين ، وأنديته ملتقى كبار السياسيين والمفكرين . و بعد أن يفرغ المؤلف من تعداد أيادى الشرق على الغرب يختم كتابه كما بدأه داعياً إلى وجوب إحقاق الحق وتحطيم الباطل والمساواة بين مختلف شعوب العالم .

هذا ولا يسعنى قبل أن أختم هذه المقدمة إلا أن أقدم جزيل شكرى لصديقى وزميلى الدكتور زكى محمد حسن أستاذ الفنون الإسلامية بجامعة فؤاد الأول لهذه اللوحات الفنية الجميلة التى قدمها لى لأضعها تحت نظر القارىء ليدرك مدى الرقى الذى بلغته الحضارة الإسلامية فى عصورها الذهبية الماضية .

رمضان سنة ١٣٦٥
أغسطس سنة ١٩٤٦

فؤاد حسنين على

كثيراً ما خلط أصحاب الرأى القديم المحدود والثقافة بين المدرسة والحياة ، وكثيراً ماأدى هذا الخلط إلى قيام وجهة نظر جديدة لاتقف أمام الاختبار ولا تحتمل النقد ؛ هذا إلى محاولة أنصار هذا الرأى الحط من قيمة التراث العقلى للثقافات البشرية الأولى التى أثبتت الأبحاث الحديثة عظمتها ، وأماطت اللثام عن الدور بل الأدوار التى لعبتها فى تطور الفكر البشرى ورقيه ، وقد اهتدى علماء ما قبل التاريخ إلى أن حوض البحر الأبيض المتوسط كان المركز الذى تكونت فيه أقدم أمواج ثقافية عرفها هذا الصقع من الكرة الأرضية والذى يطلق عليه أوربا ، وبذلك تحطمت الفكرة القديمة القائلة إن الغرب أسبق من الشرق (١) ، ودليل آخر على بطلان زعم أصحاب الرأى القديم ، هو أننا إذا قارنا بين شمال أوربا وجنوبها ، وجدنا فروقاً بعيدة فى العقائد الدينية وغيرها من المسائل المتصلة بالحياة وفلسفتها ، فالجرمان يتبعون مجموعة الأمم التى تذكر القمر وتؤنث الشمس بخلاف اليونانيين واللاتينيين الذين يقولون العكس (٢) ، كذلك إذا نظرنا إلى العناصر الأساسية التى يتكون منها الفن الغربى وجدناها فى شمال أوربا غيرها فى جنوبها ، والشمالى يسبح ويجدف خلاف اليونانى ، وحتى فيما يتعلق بتربية الماشية وزراعة الأرض ، فالفوارق بعيدة بين الأوربيين ، الشماليين والجنوبيين ، ولعل السبب فى هذه الفوارق وغيرها وجود جبال الألب العالية التى تقوم حداً فاصلا بين شمال القارة وجنوبها ، ومما يؤسف له أنه بالرغم من هذه الفوارق ، سواء تلك التى ذكرتها والتى لم أذكرها ، مازال هناك نفر من أصحاب المؤلفات الحديثة حول تاريخ النبات والاقتصاد يزعم أن كثيراً من الحاصلات الزراعية وصل إلى الجرمان إما عن طريق

الرومان فى الزمن القديم ، أو عن طريق بلاد الغال فى العصور الوسطى ، وهذا زعم باطل كما يقول «هو بس» (٣) ، وقد ذهب هذا العالم بعيداً فذكر أن الجرمان لم يأخذوا عن الرومان من الحبوب إلا صنف الشعير المعروف بذى السنبلتين . كما أنه من الثابت أيضاً أن جرمانيا كانت فى عهد القياصرة البلاد التى تمون إيطاليا بالغلال والحبوب ، والجويدار مثلا عرفه اليونان والرومان عن طريق الجرمان الشماليين والأخيرون أخذوه بدورهم عن جيرانهم الشرقيين كما يدل على ذلك اسم الحب . فلفظ « روجن » يتصل بالاسم «روجير» و «ريجن» .

كذلك إذا عبر الشمالى جبال الألب ونزل بمنطقة أوربا الجنوبية وجد نفسه ببلاد تختلف نباتياً وحيوانياً اختلافاً كبيراً عن وطنه الأصلى الشمالى بخلاف ما إذا اتجه شرقاً حتى المحيط الهادى ، فالفوارق التى قد يلحظها قليلة أو معدومة ، ومن هنا وجد التفاوت بين سكان أوربا الشماليين والجنوبيين ، وذلك لأن الإنسان كما قيل بحق ابن بيئته ، ومن الجدير بالذكر هنا أن الأبحاث الحديثة أثبتت أن تزاوجاً ثقافياً تم قبل التاريخ بين شمال أوربا وشرقها بخلاف الحال بين الشمال وحوض البحر الأبيض المتوسط فإذا سار إنسان من « أوست زيه » « البحر الشرقى » متجهاً إلى المحيط الهندى وجد بقايا المساكن التى كانت دائماً فى المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الأحمر ، والتى كانت تقطنها الصدفة الكورية ، والتى عثر عليها فى حفائر البحر الشرقى، وهى ترجع إلى مابعد التاريخ (٤) ، وفى المتحف الإقليمى بدنزيج توجد نماذج من « كبريا انولوس» و « كرينولا » و «لينكس» و « مونيتا» و « تيجريس » كما نجد أيضاً صدفة كورية فى أذن وجه مرسوم على إناء عثر عليه فى «شتنجفلده » (انظر شكل ١) وهذه الآنية وشبيهاتها ترجع إلى عصر جرمانى قديم وهو العصر النحاسى (٥) ، وقد عثر على إحدى تلك الأوانى عام ١٨٩٠ عند «فيشين» بغرب بروسيا ، كما وجد فى الأذنين على جانبى



(شكل ١)

الوجه المرسوم بها ثلاث حلقات برنزية فى أسفل كل حلقة صدفة كورية (٦)، وبمتحف دنزيج إناء ثالث عثر عليه بالقرب منها يشتمل على طبق داخلى به « كبريا لينكس » و « كرنيولا » (٧)، وفى مدافن « نيوشتدت » بالقرب من « البينج »، عثر فى مناطقها الأثرية التى ترجع إلى أوائل العصر الميلادى، على « كبريا مونيتا » (٨) وفى الحفائر التى أجريت عند «روندزن» عثر على نموذج برنزى « كبرياتيجريس » (٩) يرجع إلى العصر النحاسى أيضاً، وقد أهداه عضو البلدية « ك. بوم » عام ١٨٨٤ إلى متحف دنزيج الإقليمى، وفى « ميلرزيه » وجدت خمس صدفات كورية ومعها نقود عليها خط كوفى ترجع إلى القرنين التاسع والعاشر (١٠) وفى «جوتلند» وجدت « كبريا ميلنوستوما» ترجع إلى القرن الثامن الميلادى (١١)، وفى «بستفس» بجوتلند أيضاً وجدت ثلاث قطع من « كبريا مونيتا » (١٢) وبمدينة « مارين هوزن » عثر «فيتبسك» من أسرة ليبسكى على أكثر من خمسين قطعة من « كبريا مونيتا» ترجع إلى القرنين التاسع والعاشر، وقد نقلت هذه القطع إلى المتحف البولندى بمدينة تورن كما أشار إلى ذلك الأستاذ « كونفنتس » فى خطابه بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٨٧٩، ويشير « كروزه » فى مذكرات الجمعية الملكية لرجال الآثار الشمالية القديمة ١٨٣٦ ـ ١٨٣٩ كوبنهاجن إلى مجموعة من الصدفات الكورية التى عثر عليها فى إقليم البحر الشرقى، ويذكر المؤلف أنه رأى قطعة منها فى القسم الخاص بما قبل التاريخ فى المتحف الجرمانى بمدينة نورنبرج. والنتيجة التى يصل الباحث إليها بعد عرض هذه الحفائر وما عثر عليه فيها من آثار هى أن « كبريا » انتقلت منذ أزمنة بعيدة وفى عصور مختلفة نحو الشمال، وقد اختار المؤلف أهمها فذكرها واكتفى بالإشارة إلى كتاب العالم السويدى «إرنا» واسمه «السويد والشرق» (١٣) والذى يتحدث مؤلفه فيه كثيراً عن الآثار الشرقية التى عثر عليها فى السويد، وغير تلك الآثار نجد النقود الكوفية (١٤)

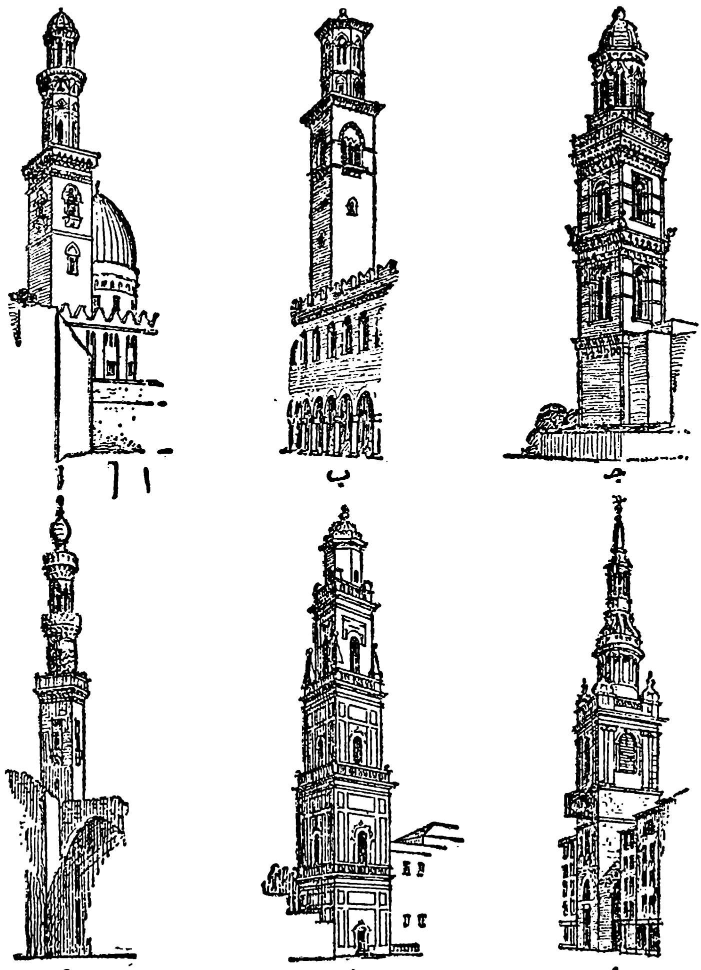
التى وجدت فى روسيا و إقليم البحر الشرقى والتى ترجع غالباً إلى مابين القرنين الثامن والعاشر كما أن الـكثرة المطلقة منها من هذا النوع الذى كان متداولا فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية أعنى القسم الإيرانى ، وتشير هذه النقود إلى كثرة العلاقات ونموها بين الشرق العربى وبلاد أوربا الشمالية ، وقد عثر مرة على نقود عربية تدولت أيام حكومة « فلديمير » و يبلغ عدد قطعها ١١٠٧٧ منها ١٠٠٧٩ قطعة ترجع إلى حكومة السامانيين التى قامت ببخارى ، وعثر فى مائتى موضع بالسويد على نقود كوفية ، كذلك فى جوتلند على مجموعة أخرى كوفية يقدرها « هلدبرند » بنحو ١٣٠٠٠ قطعة كما عثر على أخرى فى جزائر أوركنى (١٥) وفى اسلندة (١٦)، ويحتوى متحف كيل على عدد كبير جداً من النقود الـكوفية (١٧) ، ولم يقف النشاط التجارى الإسلامى عند شمال أوربا بل نجده يمتد جنوباً و يتوغل فى آسيا حتى يبلغ الهند . وقد عثر « فريد لندر » (١٨) فى « أوبرزيكو » بمدينة « بوزن » على قطعة من النقود عليها كتابة « ديفناجرى » .



والآن لننتقل من العصر القديم إلى العصور المتأخرة . إنا نعتقد فى ديانة شرقية ، ونحيا متأثرين بطقوسها وتعاليمها . لم يفهم مؤسسها اليونانية وتكلم الآرامية ولم تستطع الآداب الهللينية أن تشق طريقها إلى المسيحية بخلاف وجه الشبه الذى نجده بين بعض تعاليمها و بعض محتويات بردية ديموطيقية (١٩) ، ويكفى أن نقرأ فى موعظة المسيح على الجبل قوله : طوبى لضعاف العقول لأن لهم ملكوت السموات : لندرك بعد هذا الدين عن التعاليم الهللينية ومعارضته لها . وقد أثرت المسيحية فى حياة الغرب تأثيراً قوياً حتى أن بسمارك قال : الديموقراطية الاجتماعية هى المسيحية العملية : والشبه قوى جداً بين قباب الكنائس العالية ومساجد الشرق ذات المآذن الرفيعة ، وفى الكنيسة نجد ما يشبه محراب المسجد ومنبره ، والمسيحى فى كنيسته يشعر شعوراً يخالف ذلك الذى يشعر به داخل المعبد القديم حيث السقف المسطح الذى لا يترك فى النفس الأثر الذى تتركه القبة السماوية العالية . ويلاحظ كذلك أن آلهة المعابد لاصقة بالأرض ، ويخيل للناظر إليها كما لو أنه رابضة فى أقفاص ، وما أعمدتها إلا كالقضبان . وطقوسها تتجلى فى قرابينها الدموية بخلاف المسيحية حيث دونت عباداتها فى كتب مقدسة وإن كانت مقتبسة من اليهودية وتؤدى أحياناً بطرق يظهر فيها الأثر الفارسى . أما نواقيس الكنائس المسيحية فمأخوذة عن الطقوس الصينية ، وهى قديمة جداً فى الشرق ، وقد ترجع إلى الألف الثانى ق. م. (٢٠) والمسيحى يؤدى صلاته لا على الطريقة الهللينية ببسط يديه إلى المعبود بل بضمهما إلى صدره بطريقة تقرب من تلك التى نجدها فى الصلاة الهندية (٢١) وذلك بوضع باطن اليد على باطن اليد الأخرى دون اشتباك الأصابع

(بدها نيلى) . أما المسبحة فقد جاءت إلى المسيحية من الهند عن طريق المسلمين . وعيد الميلاد الجميل عند الألمان أصوله شرقية فهو العيد الإيرانى القديم (زرفن) أى (زمن) ، وهو بعينه الذى أطلق عليه فى الإسكندرية (أيون) (٢٢) و (زرفن) هذا أو (أيون) يتجدد عندما يختفى سلفه كطفل (٢٣) فى النور . وتماثيل العذراء ترجع إلى صورة إيزيس ، كما أن تصوير ميلاد (مترا) من بين الصخور مصحوباً عادة بصلاة لرعاة يذكرنا دائماً بهذه العناصر الدينية التى تتجلى فى رعاة على قمم الجبال يحيون كل صباح إله الشمس الذى يولد كل يوم من جديد . وتجدد الميلاد عند المسيحيين يفهم فقط عندما نستعرض أمامنا هذا المنظر . كذلك الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى تتفق تماماً مع الفلسفة الإسلامية ، كما أن التصوف الألمانى أقرب إلى الفارسى منه إلى تصوف العالم القديم . وفى الغرب نجد الراهب ، وفى الشرق الدرويش ، والراهب والدرويش يتبعان فى حياتهما نظاماً خاصاً وضعه مؤسس الطريقة التى يتبعها الراهب أو الدرويش ولو وجد بعض خلاف بين الدير والتكية . وفكرة الراهب المتسول تتفق وفكرة (بهيكهو) فى البوذية . وحتى اليوم نجد عناصر هندية تتصل بالحياة ، والنظر إليها ، تسربت إلى أوربا عن طريق شوبنهور والآراء الفلسفية التيوزوفية والانتروبوزوفية التى يعتنقها كثيرون من رجال الغرب (٢٤) . والخرافات المنتشرة بين الشعوب الأوربية ترجع كثرتها إلى البابليين كغراب البين والشهر الثالث عشر (٢٥) وعطلة يوم الأحد التى تلاحظ بشكل واضح جداً فى إنجلترا ، بابلية أيضاً ولو أنها كانت تقع عند البابليين فى يوم السبت لاعتباره من الأيام التى تقع تحت تأثير كوكب نحس ، لذلك كان غير مستحسن القيام بعمل تجارى فى ذلك اليوم . والواقع ان الراحة يوم السبت التى أخذها الإسرائليون عن البابليين مصدرها هذا التشاؤم بالرغم من كل المحاولات والتعديلات التى يحاول العهد القديم بثها بين معتنقيه . واللعبة

المنتشرة فى بروسيا الشرقية ، والتى تلعب فى نهاية كل عام ، ويطلق عليها الألمان (الحظ والبركة) ترجع فى الواقع إلى عناصر فلكية كانت معروفة فى العصور الوسطى.



شكل يبين لنا الشبه القوى بين المآذن وأبراج النواقيس

يستخدم الغرب (كتابة) صوتية اخترعها الشرق، وتكتب على مادة من صنع الصين. وتستخدم أوربا أيضاً فى حسابها (أعداداً) يرجع فضل معرفة رجال الغرب بها إلى العرب، كذلك الحال فيما يتصل بالطريقة المتبعة فى (طباعة الكتب) وقد عرفها شرق آسيا قبل أوربا بقرون عديدة، وقد ظلت جهود الشرق فى هذه الناحية وغيرها مجهولة زمناً طويلا. و (**إبرة المغنطيس**)، التى يسرت الملاحة، صينية الأصل. واستعاض الشرق عن البرق (٢٦) بوسيلة أخرى استخدمها من قبل الحروب الصليبية (٢٧) ولم تعرفها أوربا إلا فى القرن التاسع عشر. و (**العربة**) فشكلها وتركيبها عبارة عن ذلك الشكل وهذا التركيب اللذين نجدهما فى العربة الصينية التى يحملها الرجال، وقد دخلت أوربا فى عصر الروكوكو (٢٨) مع استخدامها على العجل. وفى الحروب تعتمد الجيوش على (**البارود**) وهو اختراع صينى، وحتى نظام الجيش البروسى القديم فقد تسرب إليه الأثر الشرقى. وما (**آلة الشخشخة**) المستخدمة فى موسيقى الجيش إلا من ذكريات الحروب التركية، وما (**راية الفرسان**)، وما (**القلبوق**) الذى نجده فى غطاء رأس الفارس، وماهذه (**الطبلة التى تشبه الوعاء**) إلا من آثار الجيوش التركية وحتى عهد قريب كانت تطلق بافاريا على الأسلحة الجانبية الإسم التركى، وفى لفظ (**ادميرال**) نجد الكلمة العربية (**أمير**) و (**ال**)، وفى (**أرسنال**) العبارة العربية (**دار الصناعة**). كذلك كثير من تقاليد القصر الألمانى جاءت من الشرق. وبعض الألعاب المنتشرة فى أوربا شرقية الأصل وحتى تلك التى نجدها فى أسواقنا الشعبية السنوية. و (**القطون**) الذى حاربته الكنيسة فى العصور الوسطى لأنه قماش

إسلامى غزا اليوم العالم ، و (التوابل) و (القهوة) و (الشاى) و (السكر) ومواد أخرى أساسية للمنزل كلها شرقية وعن الشرق أيضاً أخذ الغرب فن تنسيق الأراضى والحدائق والمنتزهات وما بها من (شميرات ذوات أزهار بيضاء أو حمراء) و (ياسمين) و (شقائق) و (كستناء) . واللغات الأوربية ملأى بالألفاظ والمصطلاحات الشرقية مثل (الجبر) و (الكحول) و (القبة) و (النبيذ) و (العروة) و (الأطلس) و (بازار) و (قز) و (هوردة) وأصلها الكلمة التركية التى معناها جيش . و (ياسمين) و (جبة) و (جوهر) و (كرشنر) أى (فراء) و (لك) و (العود) و (المخزن) و (بنج) و (غازية) و (رزمة) و (شيطان) من الفارسية (جوكان) و (شراب) و (صوفا) أى (صفة) و (نفت) و (تعريفة) و (نواب) أى (شقائق) و (السمت) و (صفر) و (سكر) (٢٩) . وحتى بعض أسماء النجوم مثل (الدبران) و (الغول) الذى أطلق عليه هذا الإسم لتغير قوة نوره بسبب طبيعته ، فهو يشبه الغول عفريت الصحراء فى تقلبه وكذلك النسر (الواقع) (Vega) ، وغير تلك الألفاظ نجد كثيراً من الكلمات والاصطلاحات العبرية تدخل اللغات الأوربية عن طريق الكتاب المقدس (٣١) مثل (ابن الانسان) فهى العبرية (بن إناش) وهى التى انتقلت إلى الألمانية فى التعبير Menschenskind وكذلك (ريساك) Ruppsack فهى العبرية (رب شاقة) وأحياناً نجد بعض الأسماء محتفظة بالنطق العبرى الأصلى مثل (Mammon) فهى (مأمون) و (كريتى) و (بليتى) و (توهو وبوهو) أى (ضربة خالية) ، وكذلك (شبولت) فهى العبرية (شبولت) أى سنبلة وهلما جرا . وغزا أوربا أيضاً عدد كبير من أسماء الإناث الواردة فى الكتاب المقدس مثل (اليزابث) أو (اليصابات) فهى العبرية (اليشبع) (٣٢) و (يوحنا) التى هى (يوحانان) و (مارى) مريم و (سوزان) هى (شوشن) ومعناها (سوسن) . وكذلك أسماء بعض قياصرة ألمانيا مثل (ميناس)

١٦١٢ — ١٦١٩ فهو العبرى (متيا) وكذلك (يوسف) فهو (يوسف) . والملابس الرسمية للقياصرة الألمـان فى الزمن السالف مزركشة بكتابات عربية (٣٣) ورمز الدولة الألمانية الذى هو عبارة عن نسرين أصله شرقى (٣٤) ، وحتى ميشيل الألمـانى فاسمه عبرى .

لـكن لايريد المؤلف أن يقع فى أخطاء غيره وينزلق فى تيـار الجماعة القائلة إن العالم يدين فى ثقافته الحالية كلها للبابليين أو لأصحاب الثقافات القديمة . وتذهب هذه الجماعة بعيداً وتسجل كل استعارة من الثقافة القديمة ربحاً للحضارة الحالية ، ولا يساءل أفراد هذه الجماعة أنفسهم عن الخطر الذى قد يهددنا بالعودة إلى الوراء من جراء تلك العوامل المؤثرة التى تهب على مدنيتنا وحضارتنا من نواحى مختلفة . ويعتقد المؤلف أيضاً أن فى الآداب الشعبية توجد أفكار شعبية كثيرة تسبب كثيراً من المشاكل ، كما يذكر ذلك أيضاً (هنز نومان) (٣٥) فهو يعتقد أن هناك ثقافة بدائية تشترك فيها سائر الشعوب ، وإن كان المؤلف يرى أنه بالرغم من وجود هذه الثقافة المشتركة إلا أن هناك ثقافات تقوم فى أقطار مختلفة ، وقد تكون هذه الثقافات متشابهة بالرغم من قيامها مستقلة ، وهى فى كل إقليم بعيدة عن التأثر بغيرها . وليس معنى هذا أن شعباً لم يأخذ عن غيره شيئاً من ثقافته أو مخترعاته كما تبينا ذلك فيما سبق ، ويجب ألا نتورط فى الخطأ الشائع ونعتبر كل مسمى باسم أجنبى دخيلا بدليل أن الألمانى يطلق أحياناً أسماء أجنبية على مخترعاته هو الخاصة كما هو الحال فى لفظ «تلجرافى وليتنوجرافى» وهلما جرا .

أهم العناصر الأساسية فى قيام الثقافة استخدام الكتابة الصوتية ، فمن اليونانية اللاتينيــة نشأت فيما يُعتقد فى « البحر الأسود » الكتابة المعروفة باسم « روننفوتهارك » ، وفى إيطاليا أصبحت الكتابة اللاتينية أيام فريدريش الثانى «من أسرة الهوهنشتوفن» الكتابة الرسمية ، ثم جاءت بعدها الألمانية ورسمها إلى اليوم يتفق والورق العربى الذى كتبت عليه قديما ، لكن مما يؤسف له أن الألمان ضحوا بخطهم القديم الجميل فى سبيل خط كان يكتب أصلا على الحجر ، ومن ثم على الورق وتطور من خط كله زوايا إلى آخر مربع . لكن إذا علمنا أن هدف الإنسانية الذى تسعى إلى تحقيقه هو تيســير طرق التفاهم وتسهيل وسائل التعاون أدركنا أننــا لسنا على حق فى التفرقة بين خطنا والخط الانجليزى . واليونان وقد قاموا بدور الوســيط فى سبيل تيسير الكتابة ونشرها يعترفون صراحة أنهم يدينون فى هذه الرسالة للشرق والشرقيين، فالأبجدية الحالية سامية رسماً واسما ، وقد أثبت العلامة «ليدز بارسكى» (٣٦) بالدليل القاطع علاقة الكتابة اليونانية بالسامية وكيف أنهــا أخذت عنها . ومما هو جدير بالملاحظة أن الخط اليونانى جمد بعد ما بلغ مرحلة من التطور خاصة ، وأصبح عاجزاً عن مجارات الخط السامى وتطوره الفنى الجميل هذا التطور الذى نلحظه فى غير الكتابة السامية أيضاً مثل الصينية والقوطية . وصدق العلامة « يوليوس او يتنج » الذى اعتاد أن يقول إن الألف العربية التى أتقنت كتابتها أوقع فى نفسه من صورة عذراء جميلة بريشة رفائيل . وذلك لأن الحروف اليونانية خاصة حروف التاج تترك فى نفس النــاظر إليها أثراً سيئاً إذا ما قورنت بالخط العربى وخاصــة ذلك الذى

تخطه أيدى كبار الخطاطين . وقد يكون الشعب الفينيقى ليس هو مخترع الأبجدية إلا أنه من الثابت أيضاً أن أصحابها ساميون لا آريون ، والدليل على سامية تلك الأبجدية أسماء حروفها ولو أن بعض هذه الأسماء مثل « ه » و «حيت» و « طيت » و « صاد » و « قوف » لا نعرف لها فى السامية اشتقاقا ثابتاً يُعتمد عليه و يؤخذ به . وقد يكون هذا الغموض راجعاً إلى أن أسماء هذه الحروف من بقايا لغة المخترع الأصلى التى ضاعت لكن يجب أن نعترف أيضاً أن ما وصلنا من لغة الفينيقيين قليل ضئيل ، كذلك الحال مع ما نعرفه من لسان بعض الشعوب السامية الأخرى كالأدوميين . ولو أن فكرة الحروف الصوتية نشأت فى محيط العالم الثقافى دفعة واحدة إلا أنه أضيفت إليها بعض الزيادات كما هو مشاهد عند اليابان مثلا وعند « الپاتاك » فى سومطره ، وكذلك عند « الوى » بإفريقيا . والغريب أنه لم يفكر شعب أوربى فى القيام بمثل هذا العمل . والهنود (٣٧) والبارزيون يكتبون رسائلهم المقدسة بكتابة يرجع إلى الفينيقية أو بتعبير أدق إلى الكنعانية(٣٨) . وفيما يتصل بتطور الخط والكتابة نجد علماء المصريات والأشوريات يساهمون بنصيب كبير فى كشف هذا القناع ووضع يدنا على عملية هذا التطور وكيف تمت قديماً فى الشرق . وفى عام ١٩١٦ نجد المستشرق الانجليزى « جردينر » ينشر بعض النقوش المكتوبة بخط لم يكن معروفا من قبل ، هو الحلقة المفقودة بين الهيروغليفية المصرية والكنعانية (٣٩) و بعد دراسات عميقة قام بها « فون بيسنج » (٤٠) ثبت أن هذه النقوش ليست أقدم من عام ١٥٠٠ ق . م . وفى بعض إشاراتها نستطيع أن نتعرف بسهولة إلى بعض إشارات الكتابة الهيروغليفية ، كما نجد الشبه قويا جداً بينها و بين الكنعانية ، ففى هذه نستطيع أن نتعرف مثلا إلى كلمة « بعلت » التى هى الاسم الكنعاني لهاتور . و يظهر أن الساميين استعاروا الصورة التى استخدموها فى أبجديتهم للدلالة على الصوت الأول من التسمية السامية من المصريين.

والآن نسأل أنفسنا هذا السؤال . ماذا جنت ثقافتنا من وراء هـذا النوع من الكتابة ؟ ليس تسهيل القراءة ، وذلك لأن علم النفس أثبت أن مثلنا مثل الصينيين ، فنحن لا نقرأ حروفا بل كلمات ، ومن هنا نجد صعوبة عند قراءة جملة فى لغة أجنبية ، وقد أدت هـذه الحالة النفسية إلى أننا نكتب أحياناً بعض الكلمات مختصرة بحيث أن الحروف لا تعبر كاملة على نطق الكلمة ، مثلا لكتابة كلمة « ليبزج » نكتفى أحياناً بكتابة « لبزج » أى نكتب الحروف الصامتة هنا فقط ونحذف الحركات ، وهذا النوع من الكتابة هو الذى أدى إلى ظهور النقص فى الإملاء هذا النقص الذى أدى إلى تشويه كتابة الكلمة و بتر أصواتها ، وليس هذا هو العيب الوحيد الموجود فى كتابتنا فهناك عيوب أخرى منها أننا نستخدم أكثر من إشارة للدلالة على الصوت الواحد كما هو الحال فى الألمانية حيث نجد الاشارتين « f و v » للتعبير عن الصوت الذى نعبر عنه فى العربية بالإشارة « ف » ، كذلك نجد الكتابة تستخدم الإشارة الواحدة للدلالة على عدة أصوات كما هو مشاهد فى الانجليزية مثلا حيث نجد الإشارة « a » تنطق حيناً فتحة وحيناً ألفاً وحيناً ضمة ، لكن بالرغم من أوجه النقص هـذه التى ذكرت والتى لم تذكر فقد أدى استخدام هـذه الأبجدية السامية إلى نشر الكتابة ونشر الثقافة لأن حروفها يسرت للطباعة مهمتها وعاونتها على الظهور . وفائدة أخرى لهذه الأبجدية هى تلك التى تتجلى فى استخدام البرق ، وما كان ذلك بممكن أو بمستطاع لو كنا نستخدم كتابة الصور أو المقاطع . نعم إن كتابتنا ناقصة من الناحية الصوتية وذلك لأن الإشارات الدالة على الحروف تعبر

فى نفس الوقت على مخارجها وطريقة تكوينها كما أن أصواتها فى حاجة إلى أن تفصل وكتابتها أن تبسط لكن بالرغم من جميع هذه العيوب ما زالت أتم أداة أوجدها الإنسان .

هبة أخرى من هبات العقل الشرقى لا تقل أهمية عن اختراع الأبجدية وصلت أوربا فى العصور الوسطى وهى (نظام العدد العربى) الذى هو عبارة عن آخر بقايا الكتابة الفكرية فى كتابتنا الحالية ، ولكى نشخص كتابة العدد وموضعه من حيث تقديمه وتأخيره من عدد آخر ، أو من حيث قيمته بالنسبة للصفر نتصور جدولا لوغارتمياً بأعداد يونانية أو رومانية . كذلك ندرك قيمة هذه الأعداد العربية إذا ذكرنا العلوم الرياضية والميكانيكية والفلكية الحديثة وحتى الحساب لنتصور عملية جمع أو طرح أو ضرب أو قسمة بحروف رومانية ولنتصور كتابة عدد كالآتى : CIↃIↃCCCLXXXVIII على غلاف كتاب كما كان ذلك منتشراً قبيل عام ١٨٨٨ ، وكل لغوى يدرك بسهولة كيف أن استخدام الحروف الرومانية الدالة على الأعداد كان مصدر الأخطاء المطبعية الفاحشة . أما ترتيب كتابة الأعداد والصفر فمن اختراع الهنود ، وقد حدثنا عن ذلك العالم العربى اليعقوبى أحد علماء القرن التاسع فى تاريخه الذى نشره (هوتسما — ج ١ ص ٩٢ — ٩٣) . فقال : —

« قال أهل العلم إن أول ملوك الهند الذين اجتمعت عليه كلمتهم (برهمن) الملك الذى فى زمانه كان البدء الأول ، وهو أول من تكلم فى النجوم وأُخذ عنه علمها ، والكتاب الأول الذى تسميه الهند (السندهند) وتفسيره «دهر الدهور » ومنه اختصر (الأرجبهر) و (المجسطى) ثم اختصروا من (الأرجبهر) الأركند ومن (المجسطى) كتاب بطلميوس ، ثم عملوا من ذلك المختصرات والزيجات ، وما أشبهها من الحساب ووضع التسعة الأحرف الهندية التى يخرج منها جميع الحساب الذى لا يدرك معرفتها

وهى ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ فالأول منها واحد ، وهو عشرة ومائة ، وهو ألف ، وهو مائة ألف ، وهو ألف ألف ، وهو عشرة آلاف ألف ، وهو مائة ألف ألف ، وعلى هذا الحساب أبدا فصاعدا . والثانى وهو اثنان ، وهو عشرون (وهو مائتان وهو ألفان وهو وعشرون) ألفاً ، وهو مائتا ألف ، وهو ألفا ألف ، وعلى هـذا الحساب يجرى التسعة الأحرف فصاعدا غير أن بيت الواحد معروف من العشرة وكذلك بيت العشرة معروف من المائة وكذلك كل بيت ، وإذا خلا بيت منها يجعل فيه صفر ويكون الصفر دارة صغيرة » .

أما «الصفر» فلم يجار بقية الأعداد فى تطورها وسلك طريقه الخاص . كذلك الحال مع الإشارة الدالة على عدم وجود قيمة ، والتى تعتبر بحق من أحسن ما اهتدى إليه العقل البشرى ، هى من اختراع الشرق ، وقد مرت بأدوار هامة فى تاريخ الثقافة البشرية . فالثابت أن الغرب لم يعرف الصفر قبل القرن الثانى عشر الميلادى بينما تحدثنا المصادر العربية أن المسلمين كانوا يعرفونه فى القرن الثامن وكانوا يرسمونه حلقة ، فكتب الأدب العربى حفظت لنا هذه القصيدة التى قالها الإعرابى (٤١) لما أغزاه الوليد بن يزيد الأسود بن بلال المحاربى البحر ، وفيها يشير إلى استخدام الحلقة للدلالة على عدم وجوده : —

أقول وقد لاح السفينُ مُلَجِّجاً ... وقد بَعُدَتْ بعدَ التَّقَرُّب صورُ
وقد عصفت ريحٌ وَلِلْمَوْج قاصفٌ ... ولِلْبحر من تحت السفين هَديرُ
ألا ليت أجرى والعطاءَ صفا لهم ... وحظى حَطُوطٌ فى الزمام وَكورُ
فلله رأىٌ قادنى لسفينة ... واخضَرَ مَوَّار السَّرارِ يمورُ
ترى مَتْنه سهلا إذا الريحُ أقلَعَتْ ... وإن عَصَفَتْ فالسهل منه وُعورُ
فيا ابن بلال للضّلال دعوتنى ... وما كان مثلى فى الضلال يسير

لئن وقعت رجلایَ فی الأرض مرّةً ... وحان لأصحـاب السفين وُكورُ
وسُلِّمْتُ من مَوْج كأن متونَه ... حـراءٌ بدتْ أركانُه وثبيرُ
لتَعترضَنَّ اسمى لدى العرض حَلْقَةٌ ... وذلك إن كان الإياب يسيرُ
وقد كان فى حَوْل الشَّرَبَّة مقعـدٌ ... لذيذٌ وعيش بالحـديث غزيرُ
ألا ليت شعرى هل أقولَنْ لفتيـة ... وقد حان من شمس النهـار ذرورُ
دعوا العيس تُدْنى للشَّرَبَّةِ قافلا ... له بين أمواج البحـارِ وُكـورُ

وليست هذه القصيدة هى الدليل الوحيد الذى يساق للتدليل على أن عدم وجود القيمة كان يعبر عنه المسلمون بالصفر ، وأن الصفر كان عبارة عن حلقة ، بل هناك مصادر أخرى كثيرة منها كتاب النقط لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى . فقد جاء به فى ص ١٥٠ « قال أبو عمرو وهذه الدارة التى يجعلها أهل النقط قديماً وحديثاً على الحروف الزوائد فى الخط المعدومة فى اللفظ ، وعلى الحروف المخففة هى مما جرى استعمال أهل المدينة لها فى ذلك من مصاحفهم . . . وهذه الدارة نفسها هى الصفر الصغير الذى يجعله أهل الحساب على العدد المعدوم فى حساب الغبار دلالة على عدمه » .

وغير كتب القراءات والمصاحف ودواوين الأدب نجد كتب النحو المفصلة تخصص للصفر بعض صفحاتها عند كلامها عن السكون أو العدد كما فعل ابن يعيش مثلا فى ج ٩ ص ٦٨

ويعتقد المؤلف أن سلسلة من الظواهر المتصلة بالصفر وتطوره قد مرت على الإنسان قديماً وأهملها، مثل الإشارة الدالة على الحذف تنوعت واختلفت فأحياناً يعبر عنها بواسطة دارة ، وأحياناً بواسطة نقطة كما هو ملاحظ فى النصوص العبرية للعهد القديم حيث توضع نقطة فوق الحرف للاشارة إلى خفته (قارن مثـلا النص العبرى للتوراة سفر التكوين الإصحاح السادس عشر الآية الخامسة) و إذا رغب فى الإشارة إلى إلغاء

الكلمة كلها وضعت نقط على جميع حروفها (تكوين إصحاح ٣٣ آية ٤) واستخدام هذه النقطة فى التلمود (٤٢) دليل على أنها أقدم من نظام الحركات الماسورى الذى لم يعرفه التلمود . كذلك فى النص الكوفى من (سجل فتسشتين رقم ٥) (٤٣) نجد نقطة صفراء مستخدمة كإشارة للحذف . وحتى اليوم يلغى الألمانى الخط أو الخطوط التى أراد التعبير بها عن حذف كلمة بوضع نقط ، وهذه النقطة أيضاً هى بعينها المستخدمة للدلالة على الاختصار . أما العلاقة بين هذه النقطة و بين الصفر فقريبة جداً ، وذلك لأن الصفر الذى يشار إليه اليوم برسم دارة كان يعبر عنه قديماً كما هو الحال إلى اليوم عند العرب ، بواسطة نقطة . وغير النقطة تستخدم العربية إشارة أخرى للدلالة على عدم وجود الحركة و يطلق على هذه الإشارة عادة (جزمة) وهى عبارة عن دارة مفتوحة من أعلى ولا صلة لها البتة برسم الصفر إذ أنها عبارة عن تطور خطى لرسم حرف الجيم فى العربية (٤٤)

والآن نوجه إلى أنفسنا السؤال الآتى أين استعمل الصفر للمرة الأولى كوحدة حسابية ؟ عثر العلامة (هرنله) فى قطع هندية ترجع إلى القرنين الثالث أو الرابع وتشتمل على بعض المواضيع الحسابية على الصفر لكنه استعمل فيها للدلالة على المجهول (٤٥) ، و إذا تركنا الهند إلى الصين لوجدنا الأمر غامضاً صعباً ، وذلك لأن قطع العملة الصينية التى عثر عليها والتى كان ينتظر ظهور الصفر بها لا تقدم معلوماتنا خطوة واحدة ففى بعض هذه القطع نجد الصفر ، وفى البعض الآخر لا يوجد للصفر أثر ، وحتى تلك التى جاء فيها الصفر لا يمكن الاعتماد عليها . وفى غير الهند والصين نجد أمريكا تساهم بنصيب وافر فى سبيل تاريخ الصفر ونشأته وذلك لأنه عثر عليه وعلى أجزائه فى التقويم الذى يرجع إلى ما قبل اكتشاف كولمبس للقارة الجديدة ، والذى يطلق عليه تقويم (مايا) فقد جاء الصفر فى تلك النقوش معبراً عنه بواسطة رسم يشبه الصدفة

الجوفاء (٤٦) . ومن الجدير بالذكر هنا أن الهنود يطلقون على الصفر لفظ (سونيا) أى فارغ أو (كها) أى هواء . والإشارة الدالة عليه تسمى فى لغتهم (بندو) أى نقط . أما لفظ (صفر Ziffer) فهو العربى (صفر) بمعنى « خلا » وتدل اللفظة فى الألمانية على معنى « لاشىء » وقد استخدم (مارتين لوتر) لفظ (صفر) للتعبير عن ضعف الأساقفة أمام البابا ، إذ قال ما معناه : إنهم يجلسون كالأصفار (٤٦) . وفى القرن السادس عشر نجد لفظ (صفر) فى الألمانية يتطور تطوراً آخر فيستخدم مقابلا للفظ (شفر Chiffre) للتعبير عن كل إشارة عددية ، بينما استخدمت اللغة لفظ (زيرو Zero) للدلالة على « لا شىء » وقد حاول (كرومباخر) (٤٧) إرجاع لفظ (صفر) إلى الكلمة اليونانية (فسو (فو) ريا) فلم يوفق وذلك لأن اللفظ فى حقيقته عربى ولا نعرف فى لغة القرآن الكريم ظاهرة صوتية تؤيد احتمال انتقال هذا اللفظ من اليونانية إلى العربية بصيغته الحالية . ولفظ (صفر) هذا قد استخدم فى الشعر الجاهلى للتعبير عن معنى « خلا » فيروى أن حاتم قال فى قصيدته التى مطلعها : —

أساوى قد طال التجنب والهجر   وقد عذرتنى فى طلابكم العـــذر

البيت الآتى :

ترى أن ما أهلكت لم يك ضرَّنى   وأن يدى مما بخلت به صِفْرُ

لذلك استقر رأى العلماء على اشتقاق هذا اللفظ من هذا المعنى العربى القديم (٤٨) والذى نجده أيضاً فى الهندية « سونيا » .

وكما أن الشرق هو وطن الإشارة الدالة على (صـفر) فهو أيضاً وطن الإشارة الدالة على « القيمة المجهولة » ، وقد قامت حول هـذه العلامة عدة افتراضات ترمى إلى إرجاعها إلى العـالم القديم » ومن أنصار هـذا الرأى ، (پروهيت) الذى كان يرى فى (ت . هنرى) نابغة عبقرياً (٤٩) ويعتقد هذا الفريق من العلماء أن علامة (X)

المستعملة فى الغرب ما هى إلا الإشارة الرومانية الدالة على العدد ١٠٠٠ أعنى ∞(=CIƆ) والواقع أن افتراض مثل هذا الفرض يدل على شىء كبير من عدم الدقة والعناية التى يعالج بهما رجال الرياضة وخاصة علماء الحساب العـدد ، وذلك لأنه كيف تسـتخدم الإشارة الدالة على ١٠٠٠ فى لغـة ما للدلالة فى نفس الوقت على عدد مجهول أو عدد آخر ؟ وقد هدم هـذا الرأى المستشرق (لاجارد) إذ أثبت (٥٠) أن العلامة (X) التى يستخدمها الرياضيون ما هى إلا مختصر الـكلمة العربية (شىء) التى استخدمت فى القرن الحادى عشر للدلالة على العدد المجهول وكانت هذه الـكلمة (شىء) تـكتب قديماً فى اللغات الأوربيـة (كسى Xei) كما يتبين لنـا ذلك أيضاً من استعمال (بدرو ده الـكالا) لها . والتجانس التام بين استخدام الغرب والشرق لهـذه الإشارة يؤيده كل مطلع على مؤلفات علماء الرياضيات من العرب .

وانتقال الأعداد العربية إلى الغرب له تاريخه الخاص ، وقد حاول نفر من العلماء إرجاع هـذه الأعداد إلى أصل غربى إلا أن التوفيق خان أولئك الباحثين كما خان تلك الفئة التى عرضت للأبجدية . فقد حاول « سديلوت » إرجاع كتابة هذه الأعداد العربية إلى الأعداد الرومانية (٥١) فأخفق إذ بنى آراءه على الخيـال لا على الحقائق التاريخية الثابتة . نعم إن الأعداد العربية ليست من اختراع العرب بدليـل كتابتها من الشمال إلى اليمين على خلاف ما نعرفه عن كتابة الأبجدية فى معظم اللغات السامية أعنى من اليمين إلى الشمال إلا أن العرب كانوا وسطاء هنا فقط بخلاف الأعداد التركية المعروفة باسم « سـياقة » والتى كانت مستخدمة فى دفاتر الحساب أيام الانـكشارية فهى متصلة بالأعداد العربية إذ أنها مختصرة منها . أما الأعداد المعروفة فى أوربا باسم الأعداد العربية فهى هندية الأصل كما أثبت ذلك العـالم « جورج يعقوب كير » عام ١٧٢٥ (٥٢) ويرى العـالم « برنسب » (٥٣) أن الإشارات الدالة على الأعداد

الهندية نشأت من الحروف الأولى للكلمات الدالة على هذه الأعداد و إن تكن هذه المقارنة لطيفة ، لأنها تعيننا على فهم العدد المعروف باسم « سياقة » وتطوره كما تلقى ضوءاً قويا على الكتابة السامية ، إلا أن صاحب هذه النظرية نسى احتمال وجود تشابه بين الإشارات المختلفة وأن هذا التشابه قد تكون مصدره الصدفة (٥٤) .

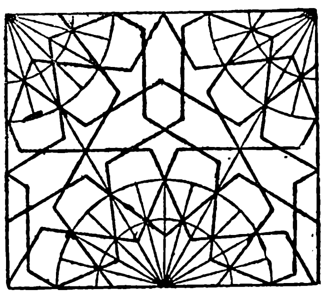
والواقع لإصدار رأى صائب فى هذا الموضوع يجب جمع الوثائق المؤرخة الواردة بها أعداد إلى بعض (٥٥) ، وقد وجد أن أقدمها هى تلك التى نتبين منها بوضوح انتقال هذه الأعداد الهندية إلى العرب ، وقد نشر هذه الوثيقة العالم « كارابشيك » فى دليل معروضات ورق البردى المسمى « بردى أرز هرزوج رينر » ص ٢١٦ — ٢١٧ ، وهذه الوثيقة عبارة عن بردية فيومية جاءت تحت رقم ٧٩٨ من مجموعة (فينا) ، والنص عبارة عن إقرار باستلام قسط قدره درهمان، وتاريخ البردية يرجع إلى عام ٢٦٠هـ ٨٧٣ — ٨٧٤ م (٥٦) ، وقد كتب المبلغ بالعدد العربى . وفيما يتصل بالوثيقة الثانية التى تلى هذه فى القدم يُرجع إلى « كارابشيك » فى المجلد الحادى عشر لعام ١٨٩٧ من مجلة المستشرقين النمساويين ص ١٣ . ومما هو جدير بالملاحظة أن الأعداد المستعملة فى غرب العالم الإسلامى أقرب إلى تلك المستعملة فى أوربا من هذه التى نجدها فى شرقه ، والسبب فى ذلك أن القسم الغربى ظل محافظاً زمناً طويلا فأخلص للصورة الهندية الأصلية وحافظ عليها وهو يستعملها إلى اليوم ، وهذه الظاهرة تذكرنا بالأبجدية المغربية فهى أقرب إلى الكوفية منها إلى الخط النسخى . وقد عثر أيضاً على مخطوطة شيرازية ترجع إلى القرن العاشر الميلادى يتجلى فيها بوضوح انتقال الأعداد من صورتها الهندية القديمة إلى تلك الصورة التى نجدها مستعملة إلى اليوم فى شرق العالم الإسلامى ، وقد نشر العالم « ف . فيبكه » فى مصدره السابق الذكر ص ٧٥ العمود الرابع صورة لكتابة تلك الأعداد كما وردت فى تلك المخطوطة .

ومن سوء الحظ أن أهل أوربا استعملوا النظام العشرى العددى ، وذلك بسبب عدد أصابع اليدين ، وقد كان أفضل لو استعمل الغرب النظام الاثنى عشرى لقابليته العظيمة للتجزئة ، و بسبب الدور الهام الذى يلعبه العـدد ثلاثة فى الصيغ الرياضية ، ولو قدر للغرب استعمال هـذا النظام العددى لتقدمت الحركة الثقافيـة تقدماً عظيما . ومن بين شعوب الأرض لا يوجد شعب يحق له أن يفخر لاستعمال هـذا النظام إلا الشعب الأفوسى الذى يقطن شمال الجزء الجنوبى من « بنو » (٥٧) أما الأوربيون، وسبقهم الفرنسيون (منـذ عام ١٧٩٩) فيستخدمون هـذا النظام الرجعى وقد ضحى الغرب بالنظام الاثنى عشرى واستخدم العشرى الناقص وتدل الآثار التى عثر عليهـا حديثاً على أن تيـارات شديدة قامت ضد النظام العشرى قبل التـاريخ إذ استخدم البابليون النظام المعروف بالنظام الستينى (٥٨) وهذا يتضح لنا من العددين ٦٠ و ١٢ والتعبير الألمانى (شوك) أى ستين وكذلك (جروسهندرت) أى ١٢٠ وهلما جرا . وممـا يؤسف له حقـاً أن التأثير البابلى لم يتغلغل فى الأنظمة الرياضية التي وصلتنا .

والآن لننتقل من الجبر إلى الهندسة . اعتادت المدرسة أن تلقن طلابها نظرية فيثاغور ، كما لو أنها أرقى ما وصل إليه التفكير البشرى القديم ، ويقال أيضاً إن فيثاغور قدم مائة ثور قربانا للآلهة شكراً على هذا الإلهام العقلى العظيم ، لـكن منذ ربع قرن تقريباً أثبت (برك) فى بحثه عن (إپشتمبا سلبا سوترا) (٥٩) أن نظرية (كنتور) القـائلة بوجود أثر للرياضة الاسكندرانية فى الهنـد لا تقوم على دعائم قوية ، وأثبت (برك) أيضاً أن رأى فيثاغور كان معروفا فى الهند فى عصر لا يمكن أن يكون أحدث من القرن الثامن ق . م . وأصبح الآن من الثابت أن تعاليم فيثاغور تعتمد على أصول شرقية فنظرية الحلول مثلا هنـدية الأصل وليست مصرية حيث توجد عقيدة الـ « كا » أى القرينة . ولم تؤثر تعاليم فلسفية فى القرن التاسع عشر

كما أثرت تعاليم شوبنهور حول الإرادة وهذه الآراء هندية الأصل وهى المعروفة باسم تعاليم « حول العطش » ، و بينما الإرادة عند شوبنهور داخلة فى عالم ما وراء الطبيعة إذ بها فى البوذية قاصرة على العالم المنظور .

بعد أن رأينـا أن عنصرين هامين من عناصر ثقافتنا وهما الأبجـدية والعدد منحتان من منح الشرق ننتقل الآن إلى موضوع آخر نتبين منه مقدار مساهمة الشرق والغرب فى الاكتشافات والاختراعات التى أثّرت وتؤثر فى عادات وتقاليـد البشر بل فى تطور الانسانية عامة خاصة فى القرون الأخيرة .



اننا نحيا فى عصر أصدق تسمية تطلق عليه هى (العالمية) و يشعر أبناء هذا العصر أن رسالتهم الأولى والوحيدة هى تهذيب الجنس البشرى والأخذ بيده كأسرة واحدة إلى مدارج التقدم والرقى . أما المدرسة الكلاسيكية فلا ضرورة لها ولا حاجة إليها فى عصرنا هذا وذلك لأن العلوم العقلية لن تهبط من السحب بل لا بد لها من أسس واقعية ثابتة عاونت على إيجادها وتدعيمها موجات ثقافية أجنبية وجدت طريقها إلى أوربا عقب اختراع الآلة المعروفة بالبوصلة والتى عليها تعتمد السفن الملاحية التى تمخر عباب المحيطات . وجرت العادة أن الطلبة يلقنون فى المدارس أن مخترع هذه الآلة هو الإيطالى « فلافيو جيويا » والذى يقال عنه إنه عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى ، والواقع غير هذا فأوربا عرفت البوصلة منذ القرن الثانى عشر وسبقت أوربا الصينُ التى استخدمتها فى عصر لن يكون أحدث من القرن العاشر، وإن كانت مصادر أخرى ترجع معرفة الصينيين للبوصلة إلى عصور أقدم إلا أن هذه المراجع ليست موضع ثقة كذلك الحال مع المصدر المنسوب للعالم المراكشى ابن العذارى والذى ألّف فى القرن الرابع عشر فإنه يرجع البوصلة إلى القرن التاسع ، وفى الخطاب المفتوح المشهور للعالم « كلبروت» إلى اسكندر فون همبولدت عن اختراع البوصلة (٦٠) نقرأ أخباراً كثيرة هامة عن هذه الآلة ، وأضاف إليها العالم «هرت » الشىء الكثير ، أما أكمل مجموعة للنصوص العربية فهى تلك التى جمعها «ايلهردَ فيدمان (٦١) ، فمن الثابت أن البحارة فى الشرق استخدموا فى أول عهدهم بالملاحة سمكا مجوفاً مصنوعاً من الحديد المغطس وكانوا يضعون السمكة فى طبق يطفو على وجه الماء و يتجه إتجاهاً جنو بياً شمالياً ،

وهناك مصادر فارسية وأخرى عربيـة ترجع هذه السمكة إلى القرن الثالث عشر، وقبل اختراع البوصلة استخدم البحارة أيضاً الغراب الذى كان يطير ويرشد الملاحين إلى اليابسة، واستخدام الطائر لهذه الغاية له سابقة فى قصة الطوفان كما نقرأ عنه أحياناً فى المصادر الهنـــدية واليابانية (٦٢) والنورماندية (٦٣)، ويحدثنا التاريخ أيضاً أن الصينيين عرفوا اتجاه البوصلة قبل عصر كولمبوس بزمن طويل ويرجح أن ذلك كان فى القرن الحادى عشر، ويجوز أنه كان فى القرن الثامن أو قبل ذلك (٦٤)



والمواد المفرقعة لم تغير مجرى الحرب فحسب بل عاونت على القيام بالكثير من الأعمال والمشاريع العمرانية العظيمة كشق الطرق بين الجبال وما أشبهها ، والفكرة القديمة التى كانت سائدة هى أن اليونان والرومان هم الذين توصلوا إلى اختراع هذا المسحوق وهذه فكرة خاطئة أدت إلى الوقوع فى كثير من الأخطاء ، والواقع أن سائر المواد الملتهبة التى استخدمت فى الحروب قديماً ومن بينها النار الاغريقية (٦٥) لا علاقة لها البتة بالمواد المفرقعة وما هى إلا هذه المواد المتصلة بالنفط . وفى جيوش الخلفاء العباسيين نقرأ كثيراً عن فرق النفاطين التى كانت تقوم بأدوار هامة فى الحروب خاصة عند الحصار ، إذ كانت تسهل مهمة الاستيلاء على المدن بعد حرق بيوتها الخشبية هكذا حدث عند الاستيلاء على تفليس عام ٢٣٨ هـ/٨٥٢ — ٨٥٣ م فصاحب (آثار البلاد وأخبار العباد) وابن الأثير واليعقوبى وغيرهم يذكرون لنا كثيراً من أعمال النفط والنفاطين فى الفتوحات الإسلامية . ومن قبل سقوط تفليس سقطت أيضاً هرقلة وحصنها عام ١٩٠ هـ أيام هرون الرشيد ، وقد خلد أعمال فرقة النفاطين الإسلامية الشاعر المكى بقوله :

هوت هرقلة لما أن رأت عجبا   جوائماً ترتمى بالنفط والنار
كأن نيراننا فى جنب قلعتهم   مصبغات على أرسان قصار

والشاعر الفارسى سعدى ذكر الشيء الكثير عن النفاطين وأعمالهم فى مؤلفاته الخالدة .

أما سبب الإضطراب الذى وقع فيه كثيرون من العلماء حول هذه المواد المفرقعة

ومخترعها فهذه الوثيقة التى تشتمل على مسحوق ملح البارود والكبريت والفحم والتى يقال إن صاحبها هو (مرقس جريكوس) الذى يظن أنه عاش فى القرن التاسع الميلادى، لكن أثبت العلماء أن (مرقس) هذا كان من أبناء القرن الثالث عشر وأنه اهتدى إلى هذا المركّب حوالى عام ١٢٥٠ م وتحت التأثير العربى (٦٦) .

ومن الاخطاء الأخرى التى ارتكبت قديماً أيضاً القول إن الراهب (برتولد شفرز) هو صاحب البوصلة مثله مثل (فلافيو جيويا) والواقع أن حتى تاريخية هاتين الشخصيتين غير ثابتة إلى جانب أن البوصلة كانت معروفة للعالم قبل العصر الذى ينسب إليه الإثنان . والشىء الجدير بالملاحظة هنا أن الذين يحاولون الترويج لمثل هذه الآراء الخاطئة لا يتجنون على الحقيقة فحسب بل على التاريخ أيضاً ، فهم يصلون مثلا بين اختراع المواد المفرقعة و بين معجزات القديسة بربارة ، فهم يروون أن القديسة اخترعت هذا المسحوق عند هجوم الفندال على إفريقيا واستخدمته هى لأول مرة لذلك أصبحت هذه القديسة شعاراً لفرق المدفعية عند كثير من الأمم حتى يومنا هذا .

وقد ظلت فكرة اختراع البارود بعيدة عن عناية العلم والعلماء حتى جاء عام ١٨٩٥ وأصدر (روموكى) كتابه المشهور عن المواد المفرقعة وتاريخها (٦٧) ، وقد أردف هذا الكتاب العالم (ادموند فون ليبمان) بمحاضرة قيمة جداً عام ١٨٩٨ (٦٨) وهو نفس العالم الذى وضع كتابا هاما فى تاريخ الكيمياء . وقد توصل العالمان الإخصائيان إلى أن (ثلج الصين) (الآن نترات البوتاسيوم أوملح البارود) أول ماعرف كان فى الصين وفى زمن لا يمكن أن يكون قبل منتصف القرن الثانى عشر ، وقد وصلتنا مصادر تحدثنا عن الدفاع المجيد الذى أبلته المدينة الصينية (بيان كنج) (الآن كاى فنج) عاصمة إقليم (هونان) بأسفل (هونج هو) ضد هجوم المغول بقيادة (أوجوتاى) عام ١٢٣٢ م (٦٩) فهنا نجد للمرة الأولى استخدام الصينيين للمواد

المفرقعة التى هى عبارة عن أسهم نارية ومواد مهشِمة محطِّمة كانوا يرمون بها العدو إذا ما حوصر فى زاوية لا يمكنه الإفلات منها. ونستطيع أن نتصور هذا النوع من الأسلحة من الرسوم الواردة فى الكتب الصينية الخاصة بالنار. وفى القرن الثالث عشر نقرأ أخباراً تفيد أن العرب عرفوا نترات البوتاسيوم عن الصين وأطلقوا عليها اسم (ثلج الصين) وفى كتاب (حسن الرمّاح) الذى ألف فيما بين عامى ١٢٧٥ و ١٢٩٥ عن النار والمحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس (٧٠) نقرأ عن ثلج الصين كعنصر أساسى فى صناعة الأسلحة النارية كما يصف لنا (حسن الرمّاح) هذا للمرة الأولى الآلة المعروفة الآن باسم طور بيد فيقول عنها (بيضة تخرج وتحرق) وأردف هذا التعريف بصورة نشرها (روموكى) فى كتابه ص ٧١. كذلك لفظ (مسكيت) فقد أثبت (ده جويه) أنه مشتق من الكلمة العربية (مستق) (٧١)، وفى أوربا نجد أقدم رسم لمثل هذا النوع من السلاح هو ذلك الوارد فى مخطوطة بأكسفورد ترجع إلى عام ١٣٢٦ (٧٢) وهى للمؤلف (ولتر ده مليمير)



وأهم من البوصلة والبارود الطباعة ، وقد كشفت لنا الآثار المصرية أخيراً شيئاً كثيراً عنها و إذا كانت طباعة الكتب من أهم بل أهم حدث ثقافى عرفته الإنسانية فإن الدَّيْن الذى تشعر به هذه الإنسانية تجاه هذا الاختراع يتضائل كثيراً جداً إذا علمنا أن فن الطباعة ما كان ببالغ هذا الشأن البعيد فى حياتنا الثقافية والاجتماعية لولا وجود عاملين هامين أولهما مادة الكتابة أعنى الورق وثانيهما الأبجدية الصوتية ، هذه الأبجدية التى تتكون تقريباً من أربع وعشرين إشارة نعبر بها عن كل ثروتنا اللغوية . فهذان العاملان الأساسيان اللذان مكنا فن الطباعة من النجاح والتطور ومجاراة حياتنا الثقافية ، من نتاج الشرق والعقلية الشرقية كما سنتبين ذلك فيما يلى : فكرة الطباعة ليست فكرة عبقرية جديدة ، وذلك لأن المتقدمين فطنوا إلى هذه الفكرة واستخدموها فى الخواتيم . وصك النقود فالبابليون كانوا ، كما نعلم يكتبون على الطين ، وكانوا يستخدمون الطين استخدام رجال الطباعة اليوم الحروف وما إليها لطبع الكتب فالبابلى كان يستطيع طباعة عدة نماذج لنص مكتوب على الطين ، وقد وصلتنا فعلا أمثلة كثيرة من هذه المطبوعات (٧٣) المختلفة النصوص ، والتى كانت تطبع ببسط طبقة من الطين على النص الأصلى فتطبع ، لكن الطين كمادة للكتابة لا يعاون كثيراً على نشر الطباعة أو الأخذ بيدها . لذلك مات هذا الفن البابلى وظهر فى شرق آسيا اختراع جديد أثَّر فى الطباعة تأثيراً كبيراً ، وهذا الاختراع عبارة عن الاهتداء إلى عمل مادة للكتابة جديدة أصلح وأحسن مما كان متداولا فى ذلك الوقت .

وحتى عام ١٨٧٥ نجد من العلماء أمثال (فاتنباخ) الذى يقول إن العصر الذى اخترع

فيه الورق ما زال إلى اليوم غامضاً ، وكم هى دهشتنا اليوم عندما نقرأ مثل هذه الجملة خاصة بعد أن رفع الحجاب عن الورق وتاريخه وأصبحنا اليوم فى حالة تمكننا من الإحاطة به أكثر من أى اختراع قديم آخر .

أما الرق والبردى فيحتاجان فى تحضيرهما إلى مجهود عظيم يتطلب نفقات كثيرة بينما فى وسط آسيا نجد دوراً للكتب المدونة على قشور الشجر ، وعثر فى جنوب الهند على مخطوطات مكتوبة على سعف النخيل ، وفى الصين على أعواد الغاب كما نصت على ذلك المصادر المتأخرة (٧٤) إذ استخدم الصينيون فى بادىء الأمر الحر بشة ومن ثم استعاضوا عنها فيما بعد بالألوان . لكن جميع تلك الوسائل لا تعاون بتاتاً على قيام الطباعة و يرجح المؤلف أن اختراع الصينى (موبخ تين) . المتوفى عام ٢٠٩ ق . م للفرشاة المسماة (بت) والمصنوعة من شعر الفيران والتى يستخدمها الصينى حتى اليوم عوضاً عن القلم يتصل اتصالا وثيقاً بالاهتداء إلى مادة للكتابة أرق وأطوع من المواد الأخرى التى كانت شائعة حتى ذلك العصر . وقد كان ذلك فعلا فالمصادر الصينية تحدثنا أن عالماً اهتـدى قبل الميلاد إلى صناعة مادة من بقايا الأقمشة الحريرية لكن غلاء هذا القماش جعل المادة المصنوعة منه أقل تداولا،لذلك فكر آخرون فى الاستعاضة عن الحرير بمواد أخرى أقل ثمنـاً . وحوالى عام ١٠٠ م استطاع (تساى لن) مدير المصنع الحربى القيصرى عمل عجينة جـديدة لصناعة الورق مكونة من قشور الشجر والقنب والخرق البالية وشبك الصيادين ، وقد يصنع الورق أيضاً من مختلف ألياف النباتات بعد تنظيفها وتنقيتها من المواد الغريبة عنها ، ومن ثم توضع فى الماء مدة حتى يسهل دقها وجعلها طبقات رقيقة تجفف وتستخدم فيما بعد للكتابة . وهـذه الطريقة القديمة لصناعة الورق هى بعينها الطريقة المتبعة عند تحضير اللباد مع مراعاة أن الأخير يستخلص من مواد حيوانيـة بينما الورق من مواد نباتيـة ولما كان الوطن

الأصلى لصناعة اللباد هو هـذا الصقع الأسيوى الذى تقطنه العناصر البدوية التركية الشرقية رأى جماعة من العلماء أن صناعة الورق فى أول عهدها تأثرت بصناعة اللباد ولا سيما فالورق كان يحضر أول الأمر من عناصر حيوانية وهى بقايا الحرير . ويقول العالم « ريتشارد أندريه » (٧٥) إن الورق اخترع أكثر من مرة فى أمريكا كما يظهر ذلك من المخطوطات المكسيكية المصورة والتى أعدت فى (مجواى) كذلك الا (تابا) البولينيزية . أما أوربا فتدين للعبقرى الصينى (تساى لن) مخترع هذا الورق الذى أخذ ينتشر ويتطور حتى بلغ هـذه المرحلة الحالية . ويستحق هذا المخترع الصينى من كل أوربى أن يسجل صورته على كل كتاب تخرجه المطابع لأن هذا العالم أجدر من كثيرين .

وأهم مصدر يحدثنا عن هذا المخترع العظيم تاريخ حياته الوارد فى أخبار الا (هان) المتأخرين الذين عاشوا فى الفترة الواقعة بين عامى ٢٥ — ٢٢٠م وقد قدر القوم وقتذاك قيمة هذا الاختراع فبجلوا صاحبه حياً وميتاً، ففى عام ١٠٥م نجد مجلس الوزراء يصدر أمره بالشكر والثناء على (تساى لن) ، كما تقرر جعل بيت المخترع والحجر الذى استخدمه لدق الورق وطرقه متحفاً عاماً للشعب .

أديبان عربيان أحدهما عاش فى القرن الحادى عشر وهو الثعالبى يذكر فى الصحيفة السادسة والعشرين بعد المائة من كتابه لطائف المعارف (طبع أوربا) : « ومن خصائص سمرقند الكواغيد التى عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون فيها لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ولا تكون إلا بها وبالصين . ذكر صاحب المسالك والممالك أنه وقع من الصين إلى سمرقند فى سبى سباهم زياد بن صالح من اتخذ الكواغيد بها ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة حتى صارت متجراً لأهل سمرقند فعم خيرها والارتفاق بها فى الآفاق » : وثانيهما أحد أبناء القرن الثالث عشر

وهو العالم الرحالة القزويني يسرد فى كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) فى سياق حديثه عن سمرقند أيضاً عبارات تكاد تتفق تماماً مع تلك التى ذكرها الثعالبى ، فالمؤلفان العربيان يذكران معتمدين على بعض المصادر القديمة كيف انتقلت هذه الصناعة من الصين إلى سمرقند، وكيف أن صناعة الورق نمت وازدهرت حتى أصبحت تجارة رائجة لأهالى تلك المدينة . وتجمع المصادر العربية أيضاً ، وتوافقها الوثائق الصينية ، على أن زيادا انتصر فى يوليو عام ٧٥١ م عند نهر طراز على أمراء الأتراك الذين كانوا فى عداء دائم ، كما هزم زياد أيضاً الجنود الصينيين الذين أرسلهم قيصرهم تحت أمرة قائد كورى لمساعدة الأتراك وأخذ عدداً كبيراً منهم أسرى حرب وأرسلهم إلى سمرقند .

ومن حسن الحظ أن الحفائر التى قام بها جماعة من العلماء فى أوائل القرن العشرين فى تركستان الصينية انتهت إلى العثور على قطع من الورق وضعت تحت تصرف جماعة من كبار العلماء الألمان لفحصها وكتابة التقارير عنها . وقد وفقوا فعلا واهتدوا إلى المواد الأولية التى صنع منها الورق . وفى عام ١٩٠٠ عثر (م.ا. شتين) فى صحراء (تكلا مكان) على وثيقتين صينيتين من الورق ترجعان إلى عامى ٧٨٢ و٧٨٧م وفحصهما (فيزنر) بالمجهر ووضع عنهما تقريراً شاملا (٧٧) . وأقدم قطعة ورق يعرفها العالم هى تلك المحفوظة بمتحف (معرفة الشعوب) (فلكور كونده) ببرلين وتاريخها يرجع إلى عام ٣٩٩ م وفحصها (ر. كوبرت) بجامعة (روستوك) (٧٨) وتبين له أن بها عشباً صينياً يطلق عليه العلماء اسم (بوميريا نيفيا) وبعض أوراق من شجر التوت وبعض الخرق .

ويحدثنا ابن خلدون أن البرمكى الفضل بن يحيى انتهز فرصة وجوده حاكما على خراسان وتعرف إلى ورق سمرقند وأدخل صناعته إلى بغداد أيام خلافة هرون الرشيد وكان ذلك فى الفترة الواقعة بين عامى ٧٩٤ — ٧٩٥ م : وبهذا الصنيع

أدى الفضل أكبر خدمة للانسانية وذلك لأنه من بغداد أخذت تنتشر مصانع الورق فى العالم الإسلامى حتى بلغت إسبانيا . وفى متحف (رَيْنر) نجد خطابين عربيين تحت رقمى ٩١٧ و ٩١٨ على ورق مصنوع من الخرق البالية ، ويرجع تاريخهما إلى حوالى عام ٨٠٠ م وهذا الورق من صنع بغداد وقد أنتجته مصانع العاصمة العباسية بعد قيام هذه الصناعة بها بسنوات قليلة . وفى الفيوم عثر العلماء على وثائق يتضح منها كيف أخذت صناعة الورق تطارد البردى . ولم يكد ينتصف القرن العاشر إلا وكان البردى فى طريقه إلى الاختفاء . وفى أوائل القرن الحادى عشر ظهر فى أسواق الفسطاط صنف آخر من الورق ذكره « بلينيوس » فقال ما ملخصه إن ورقاً لحفظ البضائع أخذ يحل محل ورق البردى (٧٩) . وقد يكون هذا الورق الذى يشير إليه «بلينيوس» هو بعينه ذلك النوع الذى استخدم فى تدوين الوثائق المصرية كما يتبين ذلك من الوثائق التى عثر عليها . وقد أدت كثرة العثور على مخطوطات عربية ، فيما بعد ، إلى معرفة المادة التى كان يصنع منها الورق فى تلك العصور ، فقد كان يصنع أحياناً من القطن ولأمر ما ساد الاعتقاد قديماً أن هذا النوع من الورق أقدم من ذلك النوع الذى كان يصنع من الكتان إلا أن أبحاث (فيزنر) المعتمدة على المجهر والتى قام بها فى فينا (٨٠) أثبتت أن صناعة الورق فى تلك العصور لم تعرف القطن بتاتاً وأيده فى رأيه هذا عالم من علماء القرن العاشر وهو ابن أبى يعقوب النديم ، فقد ذكر فى الصحيفة الحادية والعشرين من الفهرست : فأما الورق الخراسانى فيعمل من الكتان ويقال إنه حدث فى أيام بنى أمية ، وقيل فى الدولة العباسية ، وقيل إنه قديم العمل ، وقيل إنه حديث، وقيل أن صناعاً من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصينى : وتوصل (فيزنر) أيضاً إلى إثبات أن عملية لصق الورق بالمواد النشوية المنتشرة حتى يومنا هذا فى أوربا كانت معروفة أيضاً عند الصينيين والعرب .

وفى القرن الثانى عشر انتقلت صناعة الورق عن العرب إلى الرومانيين ، وفى الرابع عشر إلى ألمانيا ولكى نتبين مدى الأثر البعيد الذى تركه هذا الإختراع وصناعته يكفى هنا أن نشير إلى مقدار المفردات التى دخلت اللغات الأوربية والتى تتصل بالورق وصناعته اتصالا كبيراً . فالعبارات الدالة على المقاييس الورقية مثل (بوخ) و (ريز) عربية الأصل فلفظ (ريز) هو العربى (رزمه) بمعنى ما شد فى ثوب واحد ومن ثم انتقلت إلى الأسبانية حيث نجد (رزمه) و إلى الإيطالية (رزمه) والفرنسية (رام) والإنجليزية (ريم) وللتعبير عن (بوخ بابير) يقول الفرنسى (مان ده بابير) والروسى (ديست بوماجى) ولفظ (دست) ما هو إلا اللفظ الفارسى الدال على (يد) وهو يستخدم فى العربية أيضاً ويطلق على كم من شيء مسطح مثل الخبز (٨١) . أما فيما يتعلق بمادة الورق فقد استعارت أوربا اللفظة المصرية القديمة التى استخدمت منذ آلاف السنين للدلالة على المادة المستخدمة للكتابة للتعبير عن المادة الجديدة وذلك لأن التسمية القديمة تحمل عنصر النباتية الذى كان يستخدم للكتابة ، وهو عنصر مشترك بين القديم والحديث كاستخدام الألمان لفظ (فيدر) أى (ريشة) للدلالة على آلة الكتابة الحديثة المصنوعة من الصلب .

واستتبع اختراع الورق فى شرق آسيا ظهور أشياء كثيرة إلى الوجود لم تعرفها أوربا إلا فى العصور المتأخرة فى وقت احياء العلوم وعصر الروكوكو ، ففى ذلك الوقت فقط فكرت أوربا فى تغطية الحيطان بالورق ، كما استخدمته فى صناعة المصابيح وعمل اللعب الطائرة (٨٢) وكذلك فى النقود وما إليها خاصة فى الطباعة .

وكما أن الوطن الأصلى للورق هو الشرق كذلك الطباعة إلا أنه مما يؤسف له أننا لا نستطيع تتبع تاريخ فن الطباعة فى الصين ، وهذا بسبب عدم اهتمام كثير من العلماء الأوربيين بالدراسات الصينية رغماً من أن كل شخص ثالث فى العالم صينى

وأن لهذا الشعب الصينى أدبه الرفيع العريق كما أنه سبق أوربا فى كثير من ضروب الفنون . ومستقبله الاقتصادى يبشر بتطور عظيم ، ولعل السر فى قلة عدد المشتغلين بالعلوم الصينية انصراف الجامعات الألمانية عن هـذا النوع من الدراسات فى الوقت الذى فيه تغزى بعض المدارس الطلاب بالحروب السمنية والسبينية والمسينية كما لو أن هذه الحروب وتلك الدراسات هى العمود الفقرى للأحداث التاريخية العالمية . ومن الجدير بالذكر هنا أن جماعات (الداياك) ببورنيو (٨٣) استعاضت عن الملابس بالوشم وذلك بحفر النماذج التى يراد وشمها على الخشب وصب لون من الألوان عليها ، ومن ثم يطبع الجسد بالرسم المطلوب ، وتبدأ بعد ذلك عملية الوشم . ومما يؤسف له حقاً أن العلماء لا يستطيعون تأريخ هذا النوع من الطباعة ، وقد عثر على بعض الأقمشة المصرية المطبوعة والتى ترجع إلى القرن السادس الميلادى ، ولعل أقدمها هى تلك التى وجدت فى قبر القديس « قيصر يوس » ويرجح أنهـا مصرية الأصـل (٨٤) وهى محفوظة فى المتحف الجرمانى بنورنبرج (٨٥) ، ويملك هـذا المتحف الجرمانى أيضاً مجموعة أخرى من الأقمشـة المطبوعة والتى ترجع إلى القرنين السادس والسابع ، وقد عثر عليهـا الدكتور (فرر) فى حفائره بأخميم بمصر العليا كما عثر هناك أيضـاً على أنموذجين لطباعة القماش ، وفى مؤلف الدكتور (فرر) عن فن طبـاعة القماش الذى نشره بمدينة ستراسبورج — الزاس عام ١٨٩٨ تجـد فى اللوحة الثالثة رقم ١ صورة قد تمثل بدء قيام هذا النوع من الطبـاعة فى أوربا ، وهذه القطعة ترجع كما يرجع المؤلف إلى العصر الكاروليني . وفى القرون التالية أخذت أوربا خاصـة ألمانيا توجه عناية كبرى إلى الطبـاعة خاصة هذا النوع المتصل بالأقمشة (٨٦) . أما الانتقال من طباعة الأقمشة إلى طباعة الورق فيمثله هذا التطـور الفنى الذى نجده عند سكان بولينيزيا فهؤلاء يجمعون قشر شجر التوت ويطرقونه حتى يضير شبيهاً بالورق ، ومن



نسيج من الحرير . بغداد . أواخر القرن العاشر أو أوائل الحادى عشر



مخمل من الحرير من نسج وليم موريس سنة ١٨٨٤

ثم يطبعونه ويتخذونه لباساً ، ومما يؤسف له أيضاً أن العلماء لا يستطيعون تتبع تطور هذا الفن وتاريخه .

أما طباعة الورق عند الصينيين فكانت نتيجة طبيعية لاختراعهم له فالتاريخ يحدثنا أن العادة جرت عام ١٧٥م أن تعرض مؤلفات كُتَّاب الصين خارج بناء الجامعة، وكانت تؤخذ منها نماذج عند الحاجة . وفى نهاية القرن السادس الميلادى ظهرت فى الصين لوحات خشبية للطباعة وذلك لأن مؤسس أسرة (سوى) أمر بحفر بقايا مؤلفات كبار علماء الصين على الخشب ، ومن ثم أخذ ينتشر هذا النوع من الطباعة فى الصين وخارجها . وفيما يتصل ببدء طباعة الكتب فى اليابان فقد عرض له العالم ساتو (٨٧) ومن هذا العرض يخرج جورج يعقوب بأن القيصرة (سهو توكو) أهدت عام ٧٦٤ المعابد البوذية والأديرة ألف ألف تمثال خشبي صغير يشتمل كل واحد منها على فصل من الكتاب البوذى (فيما لا نربهاسا سوترا) ولم يكد يأتى عام ٧٧٠ م إلا وكانت هذه الهدايا قد وصلت إلى أماكنها المطلوبة . وقد عثر على عدد من هذه التماثيل فى دير (هوريو) الموجود فى (ياماثو) . وبداخل كل واحد منها نص سنسكريتى بخط صينى مكتوب على شريط طويل . أما تقليد الكتابة فيوجد فقط فى المخطوطات اليابانية (٨٨) وقد أرادت الحكومة اليابانيــة عرض أصول أقدم كتب مطبوعة فى العالم بليبزج إلا أن حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ أودت بها . وتوجد أيضاً بعض لوحات طباعة صينية ترجع إلى عام ٨١٦ ، وهى من المعدن (٨٩) ويذكر عالم الصينيات (هرت) أنه عرض عليه كتاب للبيع يرجع تاريخه إلى عام ١٠٥٤ وهو مطبوع على لوح ويشتمل على شعر شاعر من أسرة (سونج) وبه صورة للمؤلف محفورة فى الخشب (٩٠) ومن حسن الحظ أنه عثر فى السنوات الأخيرة على كثير من المطبوعات الأسيوية الشرقية .

ويذكر الجغرافى (ريتر) أن طباعة الكتب فى أديرة قبائل اللاما قديمة جداً (٩١) إلا أنه من الصعب تأريخ هذا الفن فى بلاد التبت ، وذلك لأن العلماء يجهلون أسماء أولئك الطباعين أو الذين شملوهم بعطفهم وعنايتهم ويذكر جورج يعقوب معتمداً على (ب . لوفر) فى خطابه بتاريخ ١٨ يوليه ١٩٠٢ والذى أرسله إليه من بيكين أن تاريخ أقدم كتاب مطبوع فى التبت هو عام ١٠٦٩ وهذا الكتاب هو مخطوطة لأسرة (لياوخيتان) محفوظة بمعبد (تاشيشو) (الواقع على بعد ٢٣ ميلا من شمال غربى بيكين) وقد قيل أن رجلا يدعى (تنج تسنج كورى) تبرع بكل ثروته لطبع ٥٧٩ مجلداً من كتب التبت الدينية وإهدائها إلى المعبد السابق لكن مما يؤسف له أنه لم يذكر شىء عن اسم محتويات هذه الكتب وإن كان يكاد يرجح أن الطباعة عرفت فى التبت فى القرن التاسع الميلادى . كما يفهم من الكتاب الذى ترجمه (كوت) عن تاريخ البوذية فى بلاد المغول (٩٢) أن الطبعة الأولى لكتابى التبت العظيمين وهما (كندشور وتندشور) تمت أيام الملك المغولى (بويانتو خان) الذى حكم من ١٣١١ — ١٣١٩ وفى هذين المؤلفين العظيمين نقرأ خبراً عن رجل متدين هاجر إلى بلاد المغول وصار قسيساً للقرابين ، ومن ثم أرسل المواد اللازمة لطبع الكتابين ، كما أرسل أيضاً مادة صينية سوداء ، وما فعل ذلك إلا إرضاء للاما . ومن بين هذه المواد التى أرسلها كانت لوحات للطباعة استخدمت لطبع الكتابين وعمل نماذج منهما .

وقد كشفت الحفائر الألمانية فى تركستان عن لوحات خشبية أوجرية للطباعة يرجح أنها ترجع إلى القرنين التاسع أو العاشر وقد نشر (ن . ف . ك . مللر) لوحا فى (أوجوريكا جـ ٢) (٩٣) وفى عام ١٣٣٠ م طبعت ألف نسخة أوجرية من كتاب سوترا عن الدب الأكبر (٩٤) . ومما أثار دهشة العالم المتمدين أنه عثر فى الفيوم على ثلاثين لوح طباعة عربى يرجع تاريخ الكثير من ألواحها إلى القرن العاشر الميلادى

بينما يرجح أن اثنين من بينها قد يرجعان إلى التاسع (٩٥) وذكر (كارابشيك) فى الدليل ص ٢٤٧ ما ترجمته : وفيما يتصل بالحجم وطبيعة الطباعة فيكاد يتفق تماماً مع الحجم الصينى والطريقة الصينية : إلا أنه يذهب بعيداً ويقول : إن مجموعتنا تمتاز بأنهـا تشتمل على أقدم المطبوعات التى عرفها العـالم حتى ذلك الوقت : وقد أخطأ (كارابشيك) عندما ذكر هذه الجملة إذ توجد مطبوعات يابانية أقدم من هذه التى أشار إليها . أما الوثائق العربية المطبوعة والمحفوظة فى فينا فتظهر فيها أحيانا حروف سوداء على قاعدة بيضاء أو بيضاء على قاعدة سوداء. أما الوثيقة المحفوظة تحت رقم ٩٢٩ فإنها مطبوعة بلون أحمر . وإلى جانب اللوحات العربيـة وجدت أيضاً لوحة قبطية محفوظة تحت رقم ٩٤١ . ومن ناحيـة المحتويات فلا قيمة لهذه الوثائق كما أن بعض آى القرآن الكريم التى نشر (كارابشيك) صورتها فى الدليل ص ٢٤٨ لا تدل على مجهود كبير للمسلمين فى هذه الناحية .

وموقف العلمـاء من الطباعة يختلف عنه مع الورق ، إذ بينما كشف العلم لنـا تاريخ الورق وتطوره ترك العلماء فى حيرة أحياناً أمام الطباعة وتأريخ وجودها ، لـكن ليس معنى هـذا أن فكرة الطباعة أمحت أو كادت فى بعض العصور التى يكاد يقال عنها إنها أهملت هذا الفن وتركته بدليل ما وصلنا من معلومات عن الشرق فى مختلف عصوره والـكتب العربية غنية بمثل هذه الإشارات الدالة على وجود الطباعة والاهتمام بهـا فالعالم (كارابشيك) معتمـداً على كتاب الروضـتين لأبى شامة يذكر أن نور الدين اضطر عام ١١٤٧ م بسبب الحرب الصليبية الثانية و بسبب الضيق الذى حل بالبلاد أن يصدر فى شمال سوريا نقوداً من الورق من فئة الدينار ، وما كان مثل هذا المشروع يتحقق لو لم توجد فى ذلك العصر لوحات للطباعة (٩٦) . وفى عام ١٢٩٣ م أسست فى تبريز مطابع لطباعة نقود من الورق على نمط المطابع الصينية (٩٧) وهكذا

يحدثنا المؤرخ الفارسى رشيد الدين عن فن الطباعة الصينى الأصل (٩٨)، ومن وصفه لهذا الفن وحديثه عنه يتضح لنا أن الصين كانت تطبع من الكتاب أو الوثيقة عدداً خاصاً ثم تحتفظ باللوحة أو اللوحات للرجوع إليها عند الحاجة، وقد جرت العادة أن الشخص الذى كان يريد نسخة من كتاب ما كان يتوجه إلى دار الكتب ويدفع الثمن المطلوب وتطبع له النسخة المطلوبة. ويميل جماعة من العلماء إلى الاعتقاد بأن طريقة الطباعة المعروفة الآن باسم النقل على الورق كانت خطوة سابقة للطباعة المعروفة لنا الآن كما أنه يجب ألا ننسى أن طريقة الطباعة الحديثة وتسهيل اقتناء الكتب أجدى وأنفع لنشر الثقافة من الطريقة الصينية القديمة.

والورق الذى كان يصدر إلى أوربا فى العصور الوسطى كان غالياً، وذلك بسبب المواصلات ووعورتها واستمر الحال كذلك حتى أخذت أوربا تعنى بصناعته وإنتاجه، كما اهتمت به ألمانيا فى القرن الرابع عشر اهتماماً عظيماً وساهمت فى سبيل نشر صناعته وتقدمها، وقد مهدت تلك النهضة إلى قيام الطباعة فى أوربا كما حدث عند الصينيين والعرب من قبل (٩٩).

ومن حسن الحظ أن العلماء عثروا على لوحات خشبية صينية محفورة ترجع إلى عام ١٣٣١ وقد نشرها «أوسكار منستربرج» (١٠٠). وهذه اللوحات الصينية أقدم بما يقرب من قرن من تلك التى عثر عليها فى أوربا، إذ يرجع تاريخ أقدم لوحة منها إلى عام ١٤٢٣ كما يعتقد، «كريستللر» (١٠١). أما الرأى القائل بأن ألمانياً كان مقيما ببولونيا عام ١٣٩٥ وكان خبيراً بصناعة الحفر على الخشب فما زال مفتقراً إلى إثبات.

أما الفكرة التى نقلت الطباعة من استخدام الألواح إلى الاستعانة بالحروف المتحركة التى تتكون من ٢٤ حرفاً وهى الحروف التى تتكون منها الأبجدية فليست

فكرة فى حاجة إلى عبقرية أو ذكاء خارق بخلاف فكرة الطباعة ذاتها كما أنه ليس من السهل البت فى النزاع القائم حول الطباعة على الألواح والطباعة على الحروف المتحركة وأى النوعين أسبق (١٠٢) أو اعتبار النماذج « الشابلونات » التى تستخدم معها الفرشاة أو سائر الوسائل الأخرى التى استخدمها العالم القديم خطوات معهدة لاختراع فن الطباعة كما نعرفه الآن (١٠٣) وقد تغضب هذه الحقيقة كثيرين ممن يتشدقون بألمانيا والدور الهام الذى قامت به فى الطباعة ، وقد ذكر « هرمن ديلز » أن التقدم والتدرج إلى الحروف المتحركة كان فى استطاعة كل عين قديمة إدراك قبح طباعة الحروف (١٠٤) والواقع أن العالم القديم «اليونان والرومان» كان متأخراً جداً فى فن الكتب وكان الفرق بينه و بين العصور الوسطى سواء فى الشرق أو الغرب بعيداً جداً فنحن نعلم أن رجل العصور الوسطى سما بتنظيم الأشكال وصورة الكتابة سمواً عظيما بينما الخط اليونانى القديم احتفظ بصورته القبيحة التى لا تقارن بالخطين الصينى أو العربى ، و يرى جورج يعقوب أنه كان من السهل لو صبت الحروف المتحركة من نماذج تختار من أحسن وأجمل مخطوطات العصور الوسطى حيث العناية بالخط كانت عظيمة ، و بذلك نستطيع إدخال الفن والجمال فى الطباعة ولا يجد أمثال « ديلز » حجة عندما يحاول الدفاع عن اليونانيين و يقول إن الذى منعهم من اختراع الطباعة هو حبهم للجمال الذى يتجلى فى كتابة المخطوطات ، وتتجرد منه المطبوعات لكن ألم يكن الأجدر باليونانيين أن يفكروا فيما فكر فيه جورج يعقوب ؟ لكن وقد عجز التفكير اليونانى عن الاهتداء إلى شىء من هذا فهو لا يستحق من العالم التمجيد والتخليد ، كما سجل على نفسه شيئاً كثيراً من التقصير نحو الثقافة الإنسانية ، وكان من أثر المبالغة فى تقدير التراث اليونانى خاصة فى عصر النهضة أن اتجه النشاط العقلى إلى تقليد الآثار الفنية الميتة تقليداً قضى أو كاد على كل محاولة للاهتمام بالآثار

الفنية الحية ، فقد نظر الفنان إلى الأعمدة اليونانية القائمة كمثل أعلى للجمال ولهذه النظرة أثرها السيء فى حياة الفن وتطوره . ومهما يكن الأمر فالشرطان الأساسيان لقيام الطباعة الحالية هما الأبجدية الصوتية والورق وكلاهما ليسا من عمل العقلية اليونانية وكل فرد يجد من وقته ما يسمح له بدراسة ما وصل إليه « جوتنبرج » بعد كفاح عظيم من الناحيتين الصناعية والفنية يدرك تمام الإدراك مقدار المجهود الألمانى الجبار الذى بذل فى سبيل ربط اسم ألمانيا باسم أكبر حادث حدث فى سبيل الثقافة ونشرها . وهذا الفرد بعينه الذى يهتدى إلى مثل هذه النتيجة يؤلم أمثال «بون هازن» الذين لا يحلو لهم إلا إرجاع كل شيء إلى اليونان ونسبة كل ثمرة من ثمار العلوم الحالية إلى العقلية اليونانية . لكن فات هؤلاء أننا إذا نسبنا إلى عظماء أشياء ليست لهم وكللنا رؤوسهم بأكاليل غار مزيفة أسأنا إليهم ونلنا من كرامتهم فالألمانى (جوتنبرج) مثلا قد سبقه كثيرون مثل الهولندى (كوستر) وطبع بحروف متحركة (١٠٥) ولو أنه استخدم نماذج رملية لا تصلح للطبع إلا مرة واحدة ، ونفس هذه الطريقة هى التى استخدمها (جوتنبرج) فى أول الأمر ، ومن ثم تغلب على النقص الموجود بها ووصل بها إلى ما وصل إليه .

ومن الخطأ أن نعتبر هذا النوع من الكتب الذى حاولت أوربا إنتاجه فى أول عهدها بهذا النوع من الفنون خطوة أولى فى طباعة الكتب ، وذلك لأن العالم (زدلر) مثلا يعتقد أن فن صناعة تلك الكتب متأخر جداً عن الطباعة بالحروف المتحركة ، إذ أن عمل تلك الكتب كان يتم عن طريق ألواح للطباعة عبارة عن ورق لعب وقطع خشبية محفورة ، وكان النص يكتب باليد . كذلك من الخطوات الممهدة لظهور الحروف المتحركة فى الطباعة والتى تعتبر بحق سابقة لفن (جوتنبرج) (١٠٦) استخدام الحروف المفردة فى اختصار الأسماء ولعل أول من استخدمها هو الدومينيكى

(كونراد فورستر) من سكان نورنبرج فقد استخدم طريقته هذه عند تجليد الكتب فى الفترة الواقعة بين ١٤٣٧ — ١٤٥٧ وقد وصلتنا من آثاره بعض النماذج المحفوظة فى ليبزج ونورنبرج وفيرزبرج (١٠٧) . وتذكر المصادر الصينية أن أول طابع بالحروف المتحركة التى كانت تصنع من الفخار هو الحداد (بى شنج) (Pi Schog) وكان ذلك فيما بين عامى ١٠٤١ — ١٠٤٩ م (١٠٨) وكان العالم الغربى يجهل حتى زمن قريب كيف انتقل هـذا الفن من الشرق إلى الغرب إلا أنه عثر أخيراً فى شرق آسيا على كتب مطبوعة بواسطة الحروف المتحركة وهذه الكتب أقدم بكثير من العصر الذى عاش فيه (جوتنبرج) إذ أن أقدم كتاب من تلك المجموعة التى عثر عليها يرجع تاريخه حسب تقدير العالم (ساتو) إلى ما بين عامى ١٣١٧ — ١٣٢٤ م إلا أنه من الصعب أن نصـدر حكماً قاطعاً فى وطن الكتاب إذ أنه قد يكون كورياً وقد يكون صينياً (١٠٩) . أما الكتب الكورية الأخرى المطبوعة على حروف متحركة معدنية فهى كما يقرر نفس العالم أيضاً قدم من (جوتنبرج) وقد ذكر هذا الحكم فى ذيل البحث السابق ويتحدث (ساتو) أيضاً عن كتاب من تلك المجموعة الأخيرة يرجع تاريخه إلى عام ١٤٠٩ م جاء فى مستلحقه حديثٌ على لسان ملك كوريا يدور حول تاريخ الطباعة بالحروف ، فقد جاء أن هـذا الملك أظهر عدم ارتياحه لألواح الطباعة الخشبية وأمر بصنع أحرف نحاسية على نفقته ونفقة بلاطه لطبـع سائر الآثار الأدبية والمحافظة عليها من الزوال ، ويختم الملك حديثه بأحسن الرغبات وأحر عبارات الدعاء وأن يبارك المشروع ويبارك مستقبله وكان ذلك فى تاريخ يقع بين ١٤ ديسمبر ١٤٠٣ و١٢ يناير ١٤٠٤ م

لكن بالرغم من كل تلك العوامل لم تستطع الطباعة الصينية أن تتقـدم وذلك لأن صب الكلمات الصينية يحتاج إلى كميات كبيرة جداً من الأشكال أولا والمعدن ثانياً

فهى كما يقرر نفس العالم أيضاً أقدم من (جوتنبرج) وقد ذكر هذا الحكم فى ذيل البحث السابق (١١٠) ويتحدث (ساتو) أيضاً عن كتاب من تلك المجموعة الأخيرة يرجع تاريخه إلى عام ١٤٠٩ م جاء فى مستلحقه حديث على لسان ملك كوريا يدور حول تاريخ الطباعة بالحروف فقد جاء أن هذا الملك أظهر عدم ارتياحه لألواح الطباعة الخشبية وأمر بصنع أحرف نحاسية على نفقته ونفقة بلاطه لطبع سائر الآثار الأدبية والمحافظة عليها من الزوال ، ويختم الملك حديثه بأحسن الرغبات وأحر عبارات الدعاء وأن يبارك المشروع و يبارك مستقبله وكان ذلك فى تاريخ يقع بين ١٤ ديسمبر سنة ١٤٠٣ و ١٢ يناير سنة ١٤٠٤ م .

لكن بالرغم من كل تلك العوامل لم تستطع الطباعة الصينية أن تتقدم وذلك لأن صب الكلمات الصينية يحتاج إلى كميات كبيرة جداً من الأشكال أولا والمعدن ثانياً لذلك ظلت الطباعة محدودة ومستعملة فى نطاق ضيق جداً حتى أدخلت الأبجدية السامية الصوتية فقفزت الطباعة وظهرت فى الوجود كعنصر من أهم عناصر الثقافة الإنسانية .

هذا قليل من كثير وفى هذا القدر القليل ما يكفى لمعرفة فائدة علم الاستشراق وضرورة العناية به للالمام بمعرفة وتاريخ كثير من المخترعات والأشياء التى تغلغلت فى حياة الغرب اليومية ، و إذا ذكر الاستشراق هنا فلا يعنى ذلك النوع من الدراسة الجامد الجاف والذى يعنى مثلا بالوصول إلى معرفة القواعد النحوية التى كانت مستعملة فيما قبل التاريخ والتى لا يمكن أن تخضع للأجرومية المنطقية ، ولا يعني أيضاً هذا النوع من الاستشراق الذى يحاول معرفة الأجرومية العبرية فى العصور الجليدية فكل هذه المجهودات وأمثالها لا تساوى هذا العرق الطاهر الذى يتصبب من جبين العالم المستشرق . وفيما عدا الناحية الصناعية التكنيكية عرض جورج يعقوب عرضاً

سطحياً للناحية الدينية ومن ثم انتقل إلى النواحى الاقتصادية والثقافية والفنية والأدبية وتوصل إلى كشف العلاقات بين الشرق والغرب تلك العلاقات التى طمست معالمها هذه المدارسُ التى تمجد القديم وتبالغ فى رفع شأن الدراسات الـكلاسيكية .



وقد اهتدى التاريخ إلى معرفة أن البابليين تركوا فى حياة العالم الاقتصادية والثقافية أثراً بليغاً فالعلاقة بين قيمة الفضة وقيمة الذهب والقاعدة القديمة لنظام نقود « دارايافوش » ظلت سائدة حتى سقطت قيمة الفضة . وقد أثبت العلامة « هوجو فنكلر » (١١١) أن العلاقة بين الفضة والذهب قائمة على العلاقة بين الشمس والقمر أى ٢٧ « حسب زمن دوران القمر » : ٣٦٠ « = ١ : ١٣$\frac{١}{٣}$ » . وفى القرن التاسع عشر الميلادى حدث اختلاف بسيط فى هذه النسب القيمية أدى إلى حدوث ضائقة مالية شديدة ولم تستطع القيمة الحقيقية الجديدة أن تتغلب على البابلية القديمة إلا تدريجياً و بعد مجهود شاق . والعملة الورقية التى هزت العالم المالى هزاً عنيفاً من اختراع الصين وقد تتبع تاريخها عالم الصينيات المشهور « كلا بروت » (١١٢) ومن الجدير بالذكر هنا أن الصورة التى يعبر بها فى اللغة الصينية عن هذا الضرب من النقود هى « تشاو » (١١٣) المكونة من الإشارتين الدالتين على « معدن » و « قليل » فالكلمتان تدلان على علة عمل هذا الورق النقدى . و يذكر « فلرز » (١١٤) فيما يتعلق بهذا الورق وصناعته أنه كانت تقطع قطعة الورق وعليها صورة الشريف أو العباسى و يقرأ عليها قسم بعده يصرح بتداولها . وما قيل عن النقود الورقية من حيث وطنها الصينى الأصلى يقال أيضاً عن النقود المعدنية فالعالم « مكس فيبر » يقرر أن الصين عرفت هذا النوع من النقود فى عصر لا يمكن أن يكون متأخراً عن القرن التاسع ق. م. (١١٥) لكن العلامة « جورج يعقوب » يشك فى هذا الرأى وذلك لأن « كنج » أحد العلماء الذين يمكن الاعتماد عليهم والأخذ برأيهم

قام فى جامعة « كيل » بألمانيا ببحث النقد الصينى وقدم رسالة فى هذا الموضوع نال عليها إجازة الدكتوراه فى القانون . وقد توصل فى بحثه هـذا إلى نتائج قيمة منهـا أن كثيراً من قطع النقـد الصينى التى كان يظن أن لها قيمة تاريخية كبيرة مزيف ، لذلك قد يكون اليونان هم أقدم من أوجـد عملة معدنية بدليل أن أقدم نقود فينيقية يظهر عليها الطابع اليونانى . أما أقدم ورقة نقدية صينية وصلت إلى يد العلمـاء فهى تلك التى تقدم بها الدكتور « إيرنفلد » عام ١٨٨٩ إلى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى استكهلم . وقد انتقل هذا الضرب من النقود إلى أوربا عن طريق المغول كما يظن ، وذلك فى أثناء تقدمهم فى أوربا . وقد ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر عام ١٨٩٩ م (١١٦) بحث صغير للعالم « جرسهوف » عن « الحوالات المـالية عند العرب » أثبت فيه أن هذه الحوالات المـالية لم يعرفها العالم القديم وأول من عرفها هم العرب وعنهم أخذتها أوربا فى القرن العـاشر عن طريق إسبانيا و إيطـاليا . ومع هـذا الاختراع انتقلت أيضاً الـكلمات والاصطلاحات اللازمة له ، وهذه المفردات إما فارسية الأصل و إما عربية ، وما زالت متـداولة إلى اليوم فى اللغـات الأوربية إما بصيغها الأصلية و إما مترجمة فنى اللغات الهندية الأوربية نجد مثلا التعبير « أفال Aval » وما هو إلا الـكلمة العربيـــة « حوالة » ، كذلك لفظ « شـيك » فهو شرقى فارسى كثيراً ما ذكره الفردوسى .

الشرق أيضاً هو الذى أوجد أهم وسيلة من وسائل المواصلات وقد تحدث العلامة جورج يعقوب عن (البوصلة) وعن (الحمام الزاجل) والآن يتحدث بشىء من التفصيل عن (العربة) التى تعتبر من أهم وسائل المواصلات قديماً وحديثاً لا فى الغرب فحسب بل فى الشرق أيضاً فقد استخدمت قديماً فى شرق آسيا كوسيلة من وسائل المواصلات والتى تحمل على عجلات ، فقد أثرت كثيراً فى بناء العربة الحالية . والكلمة الصقلبية (دروشكه) نجدها فى البولندية (دروشكا) والروسية (دروشكى) وهى تشير إلى الشرق . كذلك إدخال العرب للجمل فى شمال إفريقيا يعتبر من الأحداث العظيمة ، إذ أنه قام بالدور الذى تقوم به السكك الحديدية اليوم ، وإذا علمنا أن الرومان لم يقدموا على ما أقدم عليه العرب فى هذا الميدان الإفريقى أدركنا عِظم الرسالة العربية فى هذه الأقاليم التى أدّت إلى ربط أجزاء الدولة العربية أولا ، وتنمية العلاقات الاقتصادية والثقافية بين إفريقيا وآسيا من ناحية والشرق والغرب من ناحية أخرى ثانيا .

والآن عند دراسة الاقتصاد السياسى ينظر الباحث إلى نظريات « كويسنى » كنظريات أساسية فيزيوكراتية أعنى نظريات تقول بأن الأرض هى المصدر الوحيد الذى عليه تتوقف حالة البلاد الاقتصادية ، وعند شرح هذه النظريات يتجه العلماء عادة إلى الصين ، وقد ذكر « فولتير » — إذا أراد إنسان أن يتثقف فى الأحداث التى تقع على هذه الأرض كفيلسوف يجب عليه أن يتجه إلى الشرق أولا مهد جميع الفنون ، ويدين له الغرب بكل شىء — وفى السنوات الأخيرة ظهر كتاب

للأستاذ «ريشفين» عنوانه الصين وأوروبا (١١٧) أشار فيه إلى المؤثرات الصينية فى أفكار «كويسنى» كما وضع أيدينا على الشبه القوى بين الأفكار الصينية والأفكار الكويسنية وكويسنى يفضل تلك الآراء الصينية على النظريات اليونانية. وهو يذكر أن كل العناصر التى أثرت فيه كوّنت فيما بينها أولا صورة ثم تلتها ثانية فثالثة وكل هذه العناصر مجتمعة لم تتوفر إلا فى الصين (١١٨). ومن الجدير بالذكر أن «كويسنى» لما توفى ودفن ألقى تلميذه «ميرابو» كلمة نحا فيها نحو تلميذ «كونفوشيوس» (١١٩) فمن هذا يتبين أن حتى أحدث العلوم ترجع إلى الصين.



عن الشرق أيضاً أخذ الغرب فنونه الزخرفية أو التطبيقية ، ففى العصور الوسطى استورد الغرب أجود الأقمشة وأبدعها من الشرق ، وحتى يومنا هذا فالسجادة العجمية لا تعدلها سجادة أوربية تقليدية وقد أشار « سوفوس لارسن » فى بحثه المنشور بمجموعة الأبحاث التى قدمت لاندرياس إلى انتقال النماذج الساسانية إلى البلاد الاسكنديناوية (١٢٠) كذلك فن صناعة المينا أخذه اليونان والرومان عن المصريين، أما بقية الدول الأوربية فقد أخذته عن العرب عن طريق إسبانيا (١٢١) . وفيما يتصل بصناعة النسيج والخزف فالصين هى التى قدمت للعالم خير الأنواع وأفضلها أعنى الحرير والصينى . وقد أدى تحريم الإسلام لبس الحرير على الرجال ، لأن فى لبسه شيئاً من التبرج الممقوت ، وتحريم الأكل فى الأوانى المصنوعة من المعادن الثمينة إلى ظهور هذا النوع من القماش المصنوع من الحرير المخلوط والذى يطلق عليه بالفارسية «ابريشم» وإلى خلق هذا النوع من الخزف ذى البريق المعدنى . وقد حاولت أوربا تقليد صناعة هذا الخزف فلم توفق حتى يومنا هذا ، وما زالت قطع الخزف ذات البريق المعدنى الإسلامية التى صنعت فى العصور الوسطى تفوق بكثير تلك التى تصنعها أوربا فى يومنا هذا . ولعل سر إتقان هذه الصناعة يتوقف على مادة الطلاء الداخل فى تركيبها المعدن المطلوب ، وتعريضها لحرارة ضعيفة كافية لأن تخرج غاز الاكسوجين فيظهر المعدن ببريقه المطلوب . وتوجد فى جامع عقبة بالقيروان قطع من الخزف ذى البريق المعدنى وضعت عام ٨٩٤ م بأمر ابراهيم بن الأغلب ، وقد جلب معظمها من بغداد كما صَنَع البعض الآخر بغدادىٌّ كان مقيما بالقيروان ، لذلك يظن أن هذا الفن عراقى الأصل



سجادة ذات وبر من جامع أردبيل فاريسية مؤرخة سنة ١٥٤٠ بمتحف فكتوريا والبرت .

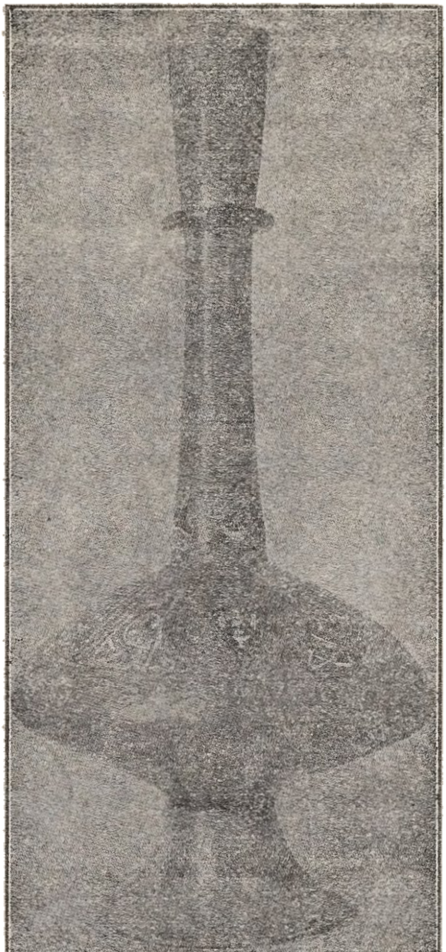
ومن هنـاك انتقل عن طريق القيروان إلى اسبانيا ، كما أجادت ملقا هـذه الصناعة إلى حد بعيـد . وفى كثير من المتاحف العالمية مثل « همبورج » نجد كثيراً من هذه القطع ذات البريق المعدني التى تشهد ببراعة الصـانع وجودة الصناعة . وعدا الزجاج الخشن والخزف ذى البريق المعدنى أجاد الشرق كساء الخشب وتغطية الورق المقوى بطبقة لامعـة تتجلى فيها المهارة الفنية النـادرة . كذلك صناعة الا « لك » الموجودة فى شرق آسيا ما زالت إلى اليوم معجزة الصناعات خاصة فى اليابان التى أخذتها عن الصين فى القرن السابع الميلادى ، وعنيت بها . فقليل من الأوربيين من يستطيع مجاراة الشرقيين و إجادة هذه الصناعة . و إذا ذكرالا « لك » ذكرت تلك الكميات الهائلة التى تصدر منـه ومن الأوانى المصنوعة به إلى أوربا . فهـذه الأوانى بالرغم من أنها صنعت للاتجار فقط ولم تراع فيها الدقة الفنية اللازمة إلا أنها ما زالت تبهر أعين الأوربيين . أما الطريقة المتبعـة فى صناعة القطع الفنية الخاصـة فهى دهن القطعة المرة بعد الأخرى مع مراعاة قواعد خاصـة ، وذلك بأن تجفف أولا الطبقة المدهونة جيداً ، ومن ثم تصقل صقلا ناعمـا مع اتخاذ كل الاحتياطات لمنع وصول التراب إلى الدهان ، وهكذا يوالى وضع طبقات الدهان حتى تنتهى العمليـة وأحياناً يجلس الصانع وسط الميـاه ليأمن وصول ذرات التراب إلى قطعته . وغير العناية بالأصباغ نجد اليابانى يوجه عنـاية أخرى لنوع الخشب الذى يستخدمه فأجود نوع يقع عليـه اختيار العامل هو ذلك المأخوذ من شجرة السرو اليابانية والتى يطلق عليها فى علم النبات «رتينوسبورا بيسيفرا» وقد يستخدم بعض الأوربيين خشبها للزخرفة . أما الا « لك » فيستخرج عادة من عصير شجر السماق . ومن ثم يعمل فيـه الصباغ مهارته وفنه حتى يكسبه اللمعـان المطلوب كما يلونه بمختلف الألوان ، وذلك بوضع مساحيق فضية أو ذهبية أو غيرهما من المساحيق المطلوبة على الخشب أو الجسم المراد دهنه ومن ثم يضع



لوح من تربيعات القاشانى المنقوش . دمشق القرن السادس عشر

عليه طبقة الا «لك» (١٢٢) . وفى العالم الاسلامى نجد صناعة الا «لك» تبلغ شأواً بعيداً خاصة فى فارس والهند فى القرن السابع عشر حيث نجد أغلفة الكتب وأغطية المرايا فى شكل كتاب . و بعض أوراق اللعب الجميلة المعروفة باسم «جندشيف» التى نجدها منشورة فى كتاب « ساره » عن تجليد الكتب الإسلامية . «برلين١٩٢٣» (١٢٣) وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر كثر الولع فى فرنسا بالصين ، ولم يمض زمن طويل حتى انتقلت هذه العدوى إلى سائر الممالك الأوربية وأخذ القوم يهتمون إلى جانب اهتمامهم بالحرير والصينى كذلك بالا « لك » الذى كان يلعب فى ذلك العصر دوراً هاما فأدخلت صناعته إلى فرنسا فى القرن السابع عشر ولم يأت منتصف القرن الثامن عشر إلا وكانت قد ازدهرت فى فرنسا ازدهاراً عظيما وأخذت أوربا تستعين بكثير من النماذج الصينية لنقش تحفها وزخرفة دورها وتجميل عربات النقل والعصى وما إليها . وفى عام ١٧٦٣ أسس « شتو بقسر » مصنعاً فى « برون شويج » لصناعة الا « لك » اللازم لطلاء وزخرفة علب النشوق التى كانت تعنى مصانع «شتو بقسر» بإنتاجها (١٢٤) لكن بالرغم من جميع المجهودات التى كرستها أوربا للرقى بهذه الصناعة فما زالت إلى اليوم متخلفة عن تلك التى نجدها فى اليابان . أما لفظ « لك » فهندى الأصل ثم انتقل إلى الفرس ومنهم إلى العرب وعن الأخيرين أخذته أوربا (١٢٥) .

ويختلف الفن باختلاف المادة الأساسية المعدة له فمثلا الصينى المرن يناسب التعبير عن الفن الروكوكى جيداً ، ولو أن هذه الزخرفة الروكوكية قد تكون مستمدة من السحب الصينية ، والشىء الجدير بالذكر هنا أن أوربا أخذت هذه القطعة الصينية الفنية ككل لا كجزء ، وذلك حسبما كانت تواتيها قوتها ويجاريها استعدادها ، والذى حدث هو أن أوربا أخذت تقلد الصين أولا ثم أخذت بعد ذلك توفق بين هذا الفن الصينى و بين الذوق الأوربى وتطوره ولو أن أوربا ظلت تستخدم بعض العناصر



قنينة من الزجاج المموه بالمينا — الشام — القرن الرابع عشر

الصينية فى كثير من إنتاجها الفنى ، ومع مرور الزمن أخذ الذوق الأوربى يستسيغ هذا العنصر الأجنبى ويعجب به . والشىء المسلم به الآن أن القطع الفخارية المحلاة بالرسوم ومختلف ألوان الدهان « ماجوليكا » (١٢٦) والتى اشتهرت بها مدينة البندقية، وكذلك صناعة البلاط القيشانى فى المدينة الهولندية « دلفت » وتصوير الطبيعة على نوع الزجاج المعروف باسم « جاليه » كلهـا فى الواقع مأخوذة عن فن شرق آسـيا . فاليابان هى التى دفعت الفنون التطبيقيـة الأوربية إلى التفـانى فى الطبيعة والمناظر الطبيعية من حيوانية ونباتية ، فساهمت فى تخليد الوطن وتقديسه ونجـد أثر هذه الظاهرة فى البرسلان المحفوظ بمدينة كوبنهاجن ، ويقول العالم « جرول » فى كتابه عن فن شرق آسيا وأثره فى أوربا (١٢٧) فى صـدد الحديث عن الفن اليابانى وأثره فى أوربا ما ملخصه — كل العناصر القوية الموجودة فى الفن الأوربى الحديث والتي ترمى إلى غزو الطبيعة واسترجاعها يابانية الأصـل كذلك الحال مع الفنون الزخرفية فالعلاقة بينها وبين الفن الياباني قوية جداً . ويتحدث « جرول » فى ص ٧١—٧٢ من كتابه السالف الذكر عن مصانع البرسلان الدنيماركية والسويدية ويقول أنها أخذت عام ١٨٩٨ كثيراً من البرسلان اليابانى « مياجاوا كوزان» المعروف باسم « مكدوزو » ويظهر أن الأثر اليابانى كان قوياً مفيداً حتى أن عالمين شهيرين هما « بيترو كروهن » و « أرنولد كروج » صرفا زمناً طويلا فى دراسة الفن اليابانى حتى أصبحا من كبار مؤرخيه يقرران بوضوح أنه لولا الفن اليابانى ما استطاع الفن الدانيماركى أو السويدى النهوض تلك النهضة العظيمة التي كفلت له السمو أولا والاستقلال ثانياً . لكن قد تقع مصانع البرسلان فى أخطاء وأغلاط ما كانت لتخطر على بال أحد ، فمثلا نموذج البصلة الذى تنتجه مصانع « ميسنر » هو فى الواقع خطأ وسوء فهم للرمانة الصينية (١٢٨) كذلك الأوانى الفخارية اليابانية ذات الطـــلاء اللامع الجميل وجدت إلى قلوب الفرنسيين طريقها فبهرت أوربا وسارع الفرنسيون إلى تقليدها (١٢٩) .

وفيما يتعلق بتغليف الكتب فقد برع فيه العالم الإسلامى ونبغ ، وما ساهمت به (هرات) فى هذا الفن لايقاس به أى مجهود آخر فى مختلف البلاد والأقطار وما أنتجته (هرات) تعجز أوربا حتى اليوم عن تقليده . ولما أخذ الغرب بهذا الفن فى عصر النهضة اكتفى فى أول أمره بمحاكاة هذا النوع الإسلامى وهذا يتجلى واضحاً فى الأشياء التى وصلتنا عن البندقية و (أوفن) حيث نلمح هذه النماذج الشرقية الإسلامية المأخوذة عن السجاد العجمى لذلك نجحت كل من البندقية و (أوفن) فى القيام بدور الوسيط بين الشرق والغرب . ومن الأقاليم الواقعة على البحار الجنوبية حيث جزيرة يافا أخذت أوربا بعض أنواع الفنون الزخرفية خاصة ذلك النوع المعروف باسم (باتيك) .

وحتى هذا العنصر الموجود فى الثقافة الأوربية والذى يرجعه العلماء إلى اليونان شرقى الأصل . وبواكير الفن الإسلامى تنطق بأنها مقتبسة من الفن المصرى القديم أو فن الشرق الأدنى . وفى الهللينية نجد المؤثرات الشرقية تطغى على اليونانيـــة وقد أثبت ذلك العالم (بوخشتين) فى كتابه الأساطين الأيونية كجزء من البناء الكلاسيكى شرقية الأصل (١٣٠) وفى نفس المصدر يذكر المؤلف أن أهم عناصر فن البناء الهللينى مصرية وقد أخـذها اليونان عن طريق الشرق الأدنى . وهـذه الخطوط المنقوشة ما هى إلا باقات اللوتس وسيقان البردى الموجودة على الأعمدة المصرية القديمة إلا أنه أسىء فهمها (١٣١) وهى صورة تعبر عن بناء المظالّ ، وإذا كان (بوخشتين) يعرض فى ص ٢٤ من كتابه الأساطين الأيونيــة المعتمدة على هذه السيقان الدقيقة ويصفها



غلاف كتاب من صناعة البندقية فى القرن السادس عشر



غلاف كتاب ألمـانى حول سنة ١٥٨٣

بأنها عمل رهيب فجورج يعقوب يقرر أن استخدام التماثيل التى تعبر عن فتيات يحملن كتلا كبيرة من الأحجار أرهب وأقسى ، وأبعد عن الذوق والزخرفة الحلزونية الموجودة على العمد الأيونيـة ترجع إلى الزخرفة البرعومية الشرقية التى كانت تعمل فى الأصل كإكليل فانتقلت إلى الأحجار اليونانية لكن طبيعة الحجر شوهت هذه الصورة الجميلة وكان مثلها مثل زبد وضع تحت حجر ثقيـل . وحتى الزخرفة اليونانية الموجودة على الزهريات فى شـكل إفريز من الأزهار تعبر عن كثير من العناصر الشرقية كما تتبين من الرسوم الواردة فى ص ١٨ من كتاب (بوخشتين) . وقد أثبت العلامة لهمان هوبت (١٣٢) أن الشمعدانات المنتشرة فى أوربا والتى هى تقليـد لأخرى اصطلح القوم على تسميتها رومانية إشارة إلى انتقالها من الشرق إلى الغرب أيام الحكم الرومانى (١٣٣) ترجع إلى القرن الأول الميلادى كما تظهر من تلك التى عثر عليها (فى بومبى) . وما هـذه الشمعدانات إلا صورة صادقة لأخرى أشورية . أما الحفر على الأحجار الكريمة فيقول عنه (فورتفنجلر) فى الصحيفة الأولى من المجلد الثالث من مؤلفه القيم عن الأحجار الكريمة والذى نشره عام ١٩٠٠ ما ملخصه : إن النقش على الأحجار الكريمة فن لا يتحتم وجوده عند كل شعب بلغ مرحلة ثقافية خاصة أو أصبح حظه من الذوق الفنى عظيما وذلك لأنه يكاد يكون من المجزوم به أن فن الحفر على الأحجار الكريمة لم يعرف إلا وطناً واحداً وهو أرض بابل :

ويذكر (بوخشتين) فى كتابه السالف الذكر أن الأعمـدة التى استخدمت كعنصر زخرفى فى البناء مصرية الأصل وقد انتقلت حوالى الألف الثانى قبل الميلاد إلى سوريا والشرق الأدنى ، وفى القرن السابع الميلادى فقط إلى اليونان . أما القباب التى هى ضرب من ضروب فن البنـاء عظيم وهى وحدها التى تمتزج بالقبـة السماوية بخلاف فن البناء اليونانى الذى يكون خطاً فى الطبيعة فشرقية الأصل و بناؤها كان

معروفاً لدى الفن المعمارى الأشورى (١٣٤) . وعن طريق فارس أخـذ يتنقل هذا الفن إلى سائر بقاع العـالم (١٣٤) . وكنائس الطائفة المسيحية المعروفة باسم الداوية تقليداً لمسجد عمر بالقدس ، وذلك لأن هذه الطائفة الدينية اعتقدت منذ العصـور الوسطى أن هذا المسجد هو معبد سليمان ، وعن طريق هذه العقيـدة وتقليد أصحابها لمسجد عمر عند بناء كنائسها انتقل فن البناء العربى إلى أوربا وظهرت القبة فى صورة روفائيل عن زواج مريم . لـكن الشىء الجدير بالذكر ، هو أن الأتراك العثمانيين أخذوا نوعاً آخر من القباب عن البيزنطيين ، وهو ذلك النوع المسـطح الذى يظهر فى مسجد أياصوفيا مع بعض التغيير الطفيف ، إذ اكتفى الأتراك بنظام أنصاف وأرباع القباب ليتخلصوا من هذه الصـورة البغيضة التى تتركها القباب المسـطحة فى النفس والتى تشبه فى الواقع خزانات زيت البترول . وعلى النقيض من القباب البيزنطية التركية المسطحة القباب الفارسية المزخرفة بالقيشانى والتى ترتفع مستديرة منتهية بما يجعلها قريبة من البصلة . وهذا النوع من القباب كثير الانتشار خاصـة فى الشرق الصقلبى كما شق طريقه أخـيراً إلى فن البناء الألمـانى . أما فيما يتعلق بانتقال القباب من الشرق إلى سائر بقاع العالم فقد تركه العلامة (چورج يعقوب) لغيره من الباحثين خاصة أولئك الذين يعنون بالمعمار وتاريخه .

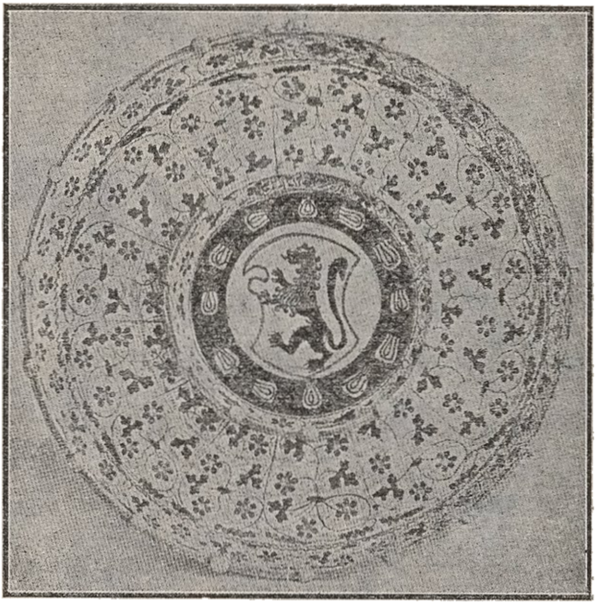
ويذكر المؤلف أيضاً أنه ليس فى حاجة إلى مجاراة مؤرخ الفن العـالم النمسوى (سترزيجوفسكى) الذى يتحدث عن الشرق وأثره المعمارى العظيم فى الحضارة العالمية خاصة فى بحثه عن آسيا الصغرى كحقل جديد من حقول تاريخ الفن . فقد أثبت هذا العالم أن أهم عناصر الفن الرومانى كانت معروفة فى الشرق قبل الغرب بقرون ، وذلك بخـلاف الفن القوطى الذى بالرغم من صـلة القرابة القوية بينه وبين الفن الشرقى لم يأخذ عن الأخير إلا الأقواس المسطحة المدببة بالرغم من أن هناك علماء يقولون إن

الفن القوطى أخذ كثيراً عن الفن الشرقى . فقد ذكر (ديز) فى ص ١٦٨ من كتابه الذى نشره فى فينا عام ١٩٢٣ عن « دراسات حول الفن الشرقى » (١٣٥) أنه يترك لغلاة الوطنيين من الباحثين فرصة الاهتداء إلى أصل الفن القوطى ووطنه سواء فى (إيل ده فرانس) أو غيرها إلا أن هناك حقيقة واحدة لا تقبل تردداً أو مساومة وهى أن كل العوامل التى أدت إلى خلق الفن القوطى شرقية .

وقد استخدم العرب هذا النوع من الأعمدة قبل الأوربيين بزمن لا يقل عن ثلاثة قرون ، ومن بقاياها جامع عقبة ، والأبنية الطولونية بالقاهرة ، والمسجد الأقصى بالقدس . أما القوس المدبب الموجود بمقياس الروضة فيظهر أنه أقدم من تلك الموجودة فى مسجد ابن طولون الذى بنى فيما بين عامى ٨٧٦ — ٨٧٨ م . وحاول (هازاك) (١٣٦) إثبات أن العمارة العربية فى القرن التاسع الميلادى استخدمت هـذه الأقواس المدببة متأثرة بفن المعمار الأوربى لكن الجدير بالذكر هنا أن أكبر بناء ألمانى فى شرق ألمانيا ألا وهو (مرينبورج) يحمل آثاراً إسلامية (١٣٧) . وفى الأبراج التابعة لبعض الجماعات الدينيـة والتى ترجع إلى القرن الثالث عشر نجد فى نوافذها وعنـد المداخل الطوب ، كما توجد كتابات افريزية على الطوب المطلى ، وكل هذه عناصر شرقية (١٣٨) ويذكر (لَسك) فى كتابه عن « أثر شرق آسيا فى فن البناء الغربى خاصة فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر (١٣٩) كيف أن فن تلك الجهات الأسـيوية ترك أثراً فى الروكوكو وفى العصر الذى سبقه . ونفس هذه النتائج توصل إليها أيضاً (ريشفين) فى كتابه الخاص الذى سبقت الإشارة إليه .

وفى مجموعات الصينى والتماثيل والديوك البرية التى نجدها عند الأمراء الأوربيين أكبر دليل على الولع والهيام بالفن الصينى . ومن تلك الآثار الشرقية أيضاً السطوح المقوسة التى أخذت تظهر فى المنـازل الأوربية ، وحلت زوايا الغرف البيضاوية محل

الزوايا الأخرى العادية . والبارافانات التى أصبحت من القطع الأساسية فى أثاث المنزل يابانية الأصل ، واسمها الإسبانى البرتغالى (بيومبو) يؤيد أصلها اليابانى إذ أن الاسم اليابانى لقطعة الأثاث هـذه هو (بيوبو) . وعن الصين سبق أن ذُكر أن أوربا أخذت نظام تغطية الحيطان بالورق الذى حل محل الجلد وقد كان مستعملا فى عصر الباروك ، أو الحرير أيام الروكوكو ، وحتى فى استخدام الجلد أو الحرير أثبت العالم (برناردت شمدت) فى كتابه عن الأبنية والآثار الفنية لمنطقة (مرينبورج) والذى نشره عام ١٩١٩ (١٤٠) وجود أثر فن شرق آسيا . والذى حدث أن الصين كانت تغطى حيطان مبانيها بالورق منـــذ القرن الرابع الميلادى ثم أدخلته هولنده فى القرن السادس عشر وانجلترا فى السابع عشر .



ويظهر أيضاً أن فن البناء الأمبراطورى الانجليزى الجاف متأثر بالمصرى القديم وحتى الأدوات المنزلية الأوربية فالأثر الشرقى فيها عظيم كما يشير إلى ذلك (هينريش پودور) فى كتابه عن « بابل والكتاب المقدس فى الفن الحديث » فهذا المؤلف يذكر أن أشهر عبقرية فى الفن الحديث سواء فى الخلق أو العمق أو التنوع هى ولا شك شخصية (پيتر بهرن) ، وفى آثار هذا الفنان لا نجد العنصر المصرى فحسب بل البابلى الأشورى أيضاً مما يدل على أنه تأثر فى كل آياته الفنية ببابل والكتاب المقدس .

و بينما التراث الشرقى غنى متنوع ، إذ بالرومانى فقير مقل ، وقد يعتبره الإنسان مخربا هداما ، فنحن نعلم أن الفندال قضوا على القوطى أيام عصر النهضة ، وحطمت الكلاسيكية الروكوكو ، كما فعل مسيحيو شرق أوربا وغربها المتوحشون بالفنين العثمانى والإسلامى ، وقد كانت كفة الأخير راجحة فالتاريخ يحدثنا أن المسيحيين عقب استيلائهم على قرطبة والحمراء شوهوا مساجدها وخربوها و بنوا فى داخلها أبنية أخرى مما دفع كارل الخامس إلى إعلان أسفه أكثر من مرة لما اقترفته يداه فى قرطبة والحمراء . كذلك الحال مع مسيحيي شرق أوربا مسيحيي البلقان ، فقد امتدت أيديهم إلى آيات الفن الإسلامى العثمانى التى كانت تزين مدنهم وميادينهم وحطموها وأقاموا على أنقاضها أخرى لا تمثل فناً ولا ذوقا ولا جمالا . وكان ذلك أول عمل قاموا به عقب استقلالهم وانفصالهم عن الدولة العثمانية كذلك فعلت بولندة بالمبانى والكنائس الروسية الجميلة التى ضاعت كلها ضحية لتطرف

روما والكنيسة الرومانية . وماذا فعلت انجلترا بمصر لقد اتخذت لها شعاراً غريباً وهو أن المنفعة أولا والفن والجمال ثانياً ، لذلك أغرقت معبد الفيلة الجميل آية الفن وعنوان النبوغ المصرى القديم ، كما أن انجلترا تعمل جادة مهدمة بمعولها الحاد جمال القاهرة وتراثها الفنى القديم . وفى ألمانيا أثران فنيان قوطيان وهما دار البلدية بمدينة (روستوك) ومعرض (نورنبرج) وقد قامت حولهما مبان أخرى شوهت جمالهما وأضاعت روعتهما . كذلك الحال مع الكتدرائية القيصرية بمدينة (جوسلر) فقد أدخلت عليها عناصر كلاسيكية أفقدتها روعتها القوطية القديمة ، ولم يكد فريدريش الأكبر يغمض عينيه حتى قامت مجموعة من الأشياء الفنية الملونة بأقبح الألوان والبعيدة عن الذوق والتى إن دلت على شىء فعلى جهل صانعيها وعجزهم عن إدراك وتطبيق ما تلقوه من علم وفن . والواقع إن مسئولية هذا المسخ تقع على عاتق هذه الفئة المتشبعة بروح الكلاسيكيين والإنسانيين ، ويذكر (تيودور منزل) فى نقده لكتاب (ريموند) عن الخزف ذى البريق المعدني التركى القديم فى الإسلام أن الإنسان إذا تغاضى عن أعمال التخريب والتدمير التى تسببها الحروب ، فالتركى حيث جاء كفاتح حافظ على سائر الأبنية القيمة كما أبقى على كثير منها ، ولما استولى العثمانيون على القسطنطينية كانت فى حالة تدهور وخراب أما صورتها الحديثة الجميلة فمن عمل اليد التركية فقد عنى الأتراك بها عناية كبرى ورعوا الفن وحنوا على الفنانين ، بخلاف المشاهد فى مدينة البندقية الآن مثلا . وإذا نظر الإنسان إلى البلاد التى خضعت من قبل لحكم الأتراك وجد آيات الفن القديمة من كنائس وما إليها باقية بخلاف الحال الآن بعد أن تقلص حكم الأتراك فلا أثر للأبنية العظيمة التى شادها الأتراك من مساجد وغيرها . أما الحالة فى بلاد اليونان فأشنع وأفظع ، فقد خرب اليونانيون سائر الأبنية التركية من دور كتب ومساجد وغيرها ، وقد شاهد العلامة

(جورج يعقوب) فى قلعة (ميتلين) مكتبة مسجد خربة خالية وليس بها إلا بعض البقايا القليلة من الكتب مبعثرة على الأرض .

وفيما يتعلق بالأبنية التكنيكية خاصة تلك الأبنية الدفاعية كالحصون وما إليها فقد مر عليها (جورج يعقوب) سريعاً ورفض أن يقف ولو وقفة قصيرة منها ثم ذكر أن العالم (أوتو بيبر) يرجح أن أنصاف الأبراج التى ما زالت إلى اليوم قائمة فى (فريبورج) بسويسرا مثلا شرقية الأصل عرفتها فلسطين ، وهى عبارة عن أبراج نصف مستديرة أو قائمة الزوايا ومفتوحة من الداخل لا يأنس العدو إليها ، ولا يستطيع أن يطيل الإقامة بها . أما الشواكل أى الممرات الجانبية التي بها فتحات فشرقية الأصل أيضاً بدليل أن التسمية الأوربية (مشيكوليس) عربية الأصل . كذلك الحال مع الرحى الهوائية الفارسية فهى أقدم من تلك التى عرفتها أوربا بقرن على الأقل ، ولعل أقدم نص ورد فيه ذكر هذه الرحى الهوائية هو ذلك الخبر الذى يذكره مؤرخو العرب خاصاً بمقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد جاء فى الطبرى : خرج عمر بن الخطاب يوماً يطوف فى السوق فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، وكان نصرانياً فقال : يا أمير المؤمنين أعْدِنى على المغيرة بن شعبة فإن علىّ خراجاً كثيراً ، قال : وكم خراجك ؟ قال : درهمان فى كل يوم . قال : وأيْش صنعتك ؟ قال : نجار نقاش حداد قال : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، قد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت قال : نعم . قال : فاعمل لى رحى . قال : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ثم انصرف عنه .

وجاء فى آثار البلاد للقزوينى ج ٢ ص ٣٢٢ طبع (فستنفيلد) أن من عجايبها (هراة) أرحية مبنية على الريح تديرها الريح بنفسها كما يديرها الماء (١٤١) .

الإسلام بأنه حارب التصوير إلا أنه لم يحرم الميادين العامة بالمدن الكبرى من ظلال الأشجار وجمال الزهور . وهذا خير من تمثال ضخم من البلاستيك قد يكون قبيحاً ، وقد يعيق حركة المرور عندما تضرب حوله الأعمدة الخشبية لحمايته ، أو لما ترفع هذه الألواح الخشبية ، ويعين له بعض الحراس للمحافظة عليه من المارة . وقد يصعب على الإنسان أن يتصور أن الإسلام الذى حرم التصوير ترك أثراً بعيداً فى الرسم الأوربى كما أن العلاقة بين الرسوم المصغرة الشرقية والغربية قوية جداً ، ولا يستطيع أحد إنكارها . وليس مصدر هذا الشبه اتفاقهما فى الأصول فنحن نعلم تركيز الرسم المصغر الإسلامى فى الماء والسحاب والنار وغيرها من العناصر الشرقية مما يؤيد أن هذا الفن شرقى قديم . وقد ألقت حفائر (ترفان) نوراً جديداً على هذه المسألة . وسبق أن أشار « جورج يعقوب » إلى مدرسة فنون البندقية وكيف أن هذه المدينة كانت فى يوم ما الباب الذى تدخل منه إلى أوربا الآثار الفنية الشرقية الجميلة مثل سجاد برجاما وغيره من الآيات الفنية ذات الألوان البديعة . وقد أثر موقع البندقية فى مدرستها الفنية فمكنها من التفوق على المدارس الأخرى التى كانت تعنى لا بالألوان فحسب بل بالذوق والجمال أيضاً ، خاصة فى عصر النهضة . ويذكر (ساريه) أن المصور العالمى (رمبراندت) تعلم كثيراً من الرسوم المصغرة الهندية الإسلامية التى قلدها وصورها (١٤٢) كما استغل كثيراً من الأوانى والملابس الشرقية التى عرضها فى لوحات كثيراً ما تعتمد على بيئة شرقية ، ورشاقة شرقية . وقد انتقل هذا الأثر الشرقى من (رمبراندت) إلى كثيرين من المصورين الهولنديين حتى أصبحت

البيئة الشرقية ، والنباتات الشرقية ، والحيوانات الشرقية ، والحيـوية الشرقية هى الطابع الخاص للتصوير الهولنـدى ، واللوحات الهولندية . ومن الفنون الشرقية التى أثرت فى أوربا أيضاً الفن اليابانى وطباعة الألوان اليابانية . وقد تغلغلت الأخيرة فى فن فرنسا وانجلترا وألمانيا وإن كان وصولها إلى ألمـانيا جاء متأخراً . أما أثر الفن اليابانى فيستطيع كل باحث فى الفنون وتاريخها أن يعدد أسمـاء الفنانين الأوربيين الذين تأثروا به خاصة فى هذا النوع المعروف الذى يحاكى الطبيعة (أمبرسيونيزم) (والإعلانات) وقد أثر الشرق أيضـاً تأثيراً مباشراً ، إذا استثنينا طريق الفن ، فى الفن الغربى فجعل البيئـة عنصرا فنياً هاما وأصبح الشرق موضوعا لـكثيرين من الفنانين الأوربيين الذين يكوّنون مدرسة هامة فى الفن الحديث . فقد استخدم هؤلاء الفنانون ريشتهم استخدام الشـاعر العربى قريحته ، فهم يغمسونها فى شمس الشرق الساطعة ويقدمونها للغرب صورة ملونة بألوان لا تتفق وطبيعة الغرب البـاردة ، هى صورة تفيض حيوية وقوة ، هى صورة محببـة إلى النفس ويطمع فى اقتنائهـا كل فرد . وعن طريق هذه اللوحات الفنية الشرقية الجميلة تعرفت أوربا أيضاً إلى الشرق وتعرف الأوربى إلى أثر هـذا الشرق فى الغرب . لـكن الشىء الجـدير بالملاحظة هو أن منظمى المعـارض الفنية كثيراً ما يراعون بعض العوامل الخارجية الخاصة مثلا بفن الصورة أو وطن الفنان ويهملون العوامل الخالقة للصورة أو عناصرها التاريخية . وقد تنبه إلى هـذا منظمو معرض ميونخ الذى أقيم عام ١٩١٠ وعرضت فيه أشهر لوحات الفن الإسلامى وزاد فى فائدة هذا المعرض معرض مؤتمر المستشرقين الألمان الذى عقد فى نفس الزمان والمـكان ، وقد استفاد من إقامة المعرض وعقد المؤتمر المسرح وفن الـكتب المصورة وسائرُ الجمـاعات التى تعنى بالفنون . وقد أتاح هذا المعرض لزواره الفرصة لمشاهدة الشرق من نواحيه المختلفة كما مكن الفنان من التعرف إليه وإصدار

حكم عنه يخالف حكم السائح أو العالم أحياناً . هذا فضلا عن الفوائد التى يجنيها شمال أوربا البارد ، والمؤثرات الجديدة التى قد يخضع لها .

ومن أشهر الفنانين الأوربيين الذين كرسوا حياتهم للشرق (١٤٣) والشرقيين (هلدبرند) (١٨١٨ — ١٨٦٨) مصور المناطق المدارية ، وصاحب اللوحات المائية التى قام برسمها أثناء رحلته العالمية . وقد خلقت لوحاته هذه بألوانها الفتانة فناً جديداً فى عالم الألوان . وغير هذا الفنان نجد أيضاً (وليم جنتز) (١٨٢٢ — ١٨٩٠) ولوحاته محفوظة بالنسيونال جاليريه ببرلين وكذلك نجد الفنان الشهير (فيرنز ايزنهوت) المتوفى عام ١٩٠٣ ومن أشهر لوحاته (موت جول بابا بمدينة أوفن) وهى تعتبر من أجمل اللوحات التى تفخر بها مدينة بودابست . ثم نجد أيضاً (فسيلى فرشتساجن) الذى خرّ قتيلا عام ١٩٠٤ . فقد استطاع هذا الفنان الموهوب أن يصور عظمة الفن المعمارى المغولى بالهند كما رسم بريشته الحروب الشرقية معتمداً على مشاهداته الشخصية (١٤٤) . ومن أشهر الفنانين الفرنسيين الذين عنوا بالشرق الفنان الكبير (دلاكروا) (١٤٥) و (ديكم) و (مريلهات) و (فرومنتين) و (جو يليوميت) الذين عرض (موتر) لهم ولآثارهم الفنية فى كتابه عن تاريخ الرسم فى القرن التاسع عشر (١٤٦) . وليست حملة نابليون على مصر هى التى جعلت الغرب يدرك جمال الشرق وروعته وخياله القصصى ونقائضه الجميلة بل ظهور العصر الرومانتيكى .

ومن الأبحاث الجديرة بعناية العلماء واهتمامهم وضع كتاب فى تاريخ الفن القصصى ونشأته ففى العهد القديم (التوراة) مثلا نجد القاص الإسرائيلى الشمالى يلعب الدور الهام فى التأثير على عقلية الشعب ومعتقداته مما أدى إلى سيطرة نوع من الرهبة على عقلية الإسرائيليين عند معالجتهم لأسفارهم المقدسة نلمس آثارها فى كثرة التفاسير التى نشأت فى تلك العصور والتى هى خلو من الذوق والفن ، ولم يتبين العالم حقيقة أسفار العهد القديم وما فيها من جمال وفن إلا بعد أن زالت تلك الرهبة وتحررت العقول من شبح رجال الدين ، فظهر أمثال (جونكل) ووضع تفسيره الشهير لسفر التكوين ، واستطاع أن يكشف للقارىء ما فى هذا السفر من فن فى العرض وذوق فى التعبير . كذلك الحال مع الإنجيل من حيث أسلوبه وعباراته فقد حاول كثيرون فهمه على ضوء التراث الأدبى الكلاسيكى ففشلوا ، وذلك لأنه من الثابت أن الإنجيل ألف أصلا بالآرامية وليس باليونانية ، ونحن إذا قرأنا بعض قصصه مثل قصة بطرس وأنكاره للمسيح لمسنا الأصل الآرامى وأدركنا التأثير البليغ الذى تتركه هذه القصة فينا والذى لا نجده فى القصة فى ثوبها اليونانى الغريب . والنشرات التى تتحدث عن اعتناق القديسيين المسيحيين للنصرانية ، وعن المعجزات التى أتوا بها ونبوءاتهم عن يوم مماتهم هى فى الواقع شرقية . ففى البلاد الإسلامية نجد ما يعرف بكتب المناقب ، وهى سير الأولياء والصالحين ، وعلى نمط هذه الكتب وضعت المؤلفات الغربية المسيحية . ومما يؤسف له أن تاريخ هذا الضرب من الأدب لم يبحث ولم توجه إليه العناية اللازمة . وفى فجر الأدب الألمانى القديم نجد أمثال (هليند) و (أوتفريد)

يحاولان معالجة مجموعة من المواضيع الشرقية ، وعند بزوغ فجر الآداب الألمانية الحديثة نجد (كلو پشتوك) بلباسه القديم الذى جعله مسيحاً غـير مقبول . وكتاب دانيال أصبح المثل الأعلى لسائر الآداب المنسوبة لغـير مؤلفيها أعنى للوحى إلى (نبوءات لهنين) . و (جوته) شغف إبان طفولته وشبابه بالعهد القديم حتى عرف عنه فى ليبزج ولعه بالحـديث عن العهـد القديم وفى عام ١٩١٢ تقدم (كونراد برداخ) ببحث إلى الأكاديمية البرلينية حول — فاوست وموسى — أثبت فيه أثر قصة موسى حتى تلك الواردة فى القرآن فى (فاوست) وهذا الأثر ملاحظ عند ظهور الله فى العليقة ، كما أن منظر الموت الوارد فى الفصـل الثانى يشبه وصف وفاة موسى كما تذكره الـكتب اليهودية المتأخرة . أما مدخل (فاوست) فقد أخـذه (جوته) عن المسرح الهندى وسـفر أيوب . أما فيما يتعلق بشاعر إيطاليا الخـالد (دنتى) وتأثره بالشرق العربى والمصادر الإسلامية فقد عرض له المستشرق الإسبانى (ا . بالسيوس) ووفاه حقه .

والشىء الجدير بالذكر أيضاً أن كثيراً من القصص والأساطير المنتشرة فى الغرب يرجع إلى الشرق وخاصة الهند . ففى قصة (برلام ويواسف) مثلا المنتشرة فى العالم المسيحى ، والتى تبشر فى ثوبها الحالى بالمسيحية ، وتدعو إلى النسك هندية الأصل . وهى تلخص فى أنه كان بأرض الهند ملك عظيم ، وكان حريصاً على الاحتفاظ بملكه فباعد بينه و بين رجال الأديان وعاش فى الوثنية . وكان له صديق يجله و يحترمه فانقطع عنه مدة فسأل عنه الملك فأخبر أنه زهد فى الدنيا ولحق بالنساك . فأمر الملك بإحضاره ودار بين الاثنين حديث ظريف حول الفرد وحريته ، ومن ثم ينتقل الناسـك من هذا الحديث إلى خبر اعتزاله الدنيا وتنسكه ، فيقول كيف أنه سمع فى حداثته أن الجاهل يحسب الأمر الذى هو الشى لا شىء ، والأمر الذى لا شىء شيئاً ، وأن من لم يرفض الأمر الذى لاشىء لم ينل الأمر الذى هو الشىء . ومن لم ينظر الأمر الذى هو الشىء

لم تطب نفسه بترك الذى هو لاشيء . والشيء هو الآخرة ، والذى لاشيء هو الدنيا . ومع تقدم السن أدرك هـذا الصديق أن حياة الدنيا موت ، وغناءها فقر ، وفرحها حزن ، وشبعها جوع ، وصحتها سقم ، وقوتها ضعف ، وعزها ذل ، ولذتها ألم ، لأن الموت مصير الحى ، والحاجة ملازمة للغنى ، والدنيا مرصـدة لـكل من أصاب منهـا سروراً بأن يعقبه حزناً و... و بعد أن يعدد الناسك للملك مصائب الدهر ومتاعب الحيـاة يذكره بأن الدنيا هي الصاحب الذى لا يؤمن جانبه ، وهى الطريق المهلك ، والسفينة الخلقة ، والبيت الـكثير الأفاعى ، والجنان الزائدة الوحوش . الدنيا هى التى تعقد التاج على رأس الملك ثم تدفن رأسه فى التراب ، تحلى الأيدى بالذهب وتغلها بالحديد . هذه هى الدنيا ، وأما الناس فاختلافهم على قدر تفاضلهم فى القوة فمنهم من هو كالأسد فى البطش ، ومنهم كالذئب فى الخطف ، ومنهم كالـكلب فى الهرير تارة والبصبصة تارة ، ومنهم كالثعلب فى الحيل والسرقة ، والقصـد واحد والطرق مختلفة . ويختم هذا الحديث بين الناسك والملك بعبارة توضع على لسان الملك ملخصها أيهـا الحـكيم إنك لم تبصر شيئـاً ، ولم تظفر إلا بالشقاء العاجل والأمل الباطل والحرمان النـازل فاخرج من مملـكتى فإنك فاسد .

و بعد ذلك تنتقل القصة إلى الحديث عن ابن الملك وكيف أنه لما ولد له ، أمر والده بإحضار المنجمين والعلماء لعمل مولد له فذكروا أنهم قد وجدوا أن هذا المولود سيبلغ من علو المرتبة ما لم يبلغه ملك من ملوك الأرض ، وظن أحد العلماء أنه سيكون إماماً فى النسك فتنغص سرور الملك بالغـلام ثم أمر فأخليت له مدينة وتخير لخدمته وتربيته الثقاة الصونة ، وطلب إليهم ألا يذكروا فيما بينهم موتاً ولا آخرة ، ولادينًا ، ولا نسكا ، ولا زوالا ولامعاداً . لـكن الأمر لايقف عند هذا الحد فالملك غاضب حانق على النساك لذلك يأمر بتشتيتهم والقضاء على من يتخلف منهم ، ويمعن فى

التضييق على ابنه الذى يضيق صدره بهذا الحصار ، و يدرك الملك أن هـذا الحبس لا يزيده إلا إغراء ، وأمر الملك أصحابه أن يركبوا فى أحسن زى و ينحوا عن طريقه كل منظر سوء ، و يحدث أن غفلوا عن رجلين من المتصدقين أحدهما مورم مرهل مصفر بشع المنظر شديد الأنين ، والآخر أعمى ينهش قائده لينحيه بسرعة من طريقه ، فلما رآهما ابن الملك اقشعر منهما ومضى محزوناً باغضاً للعيش مستخفاً بالملك . ثم رأى مرة شيخاً كبيراً قد أحناه الـكبر وابيض شعره واسود لونه وقال ما هذا ؟ فقيل له : الهرم. فقال : وفى كم يبلغه المرء ؟ فقيل له : فى مائة سنة ونحوها : فقال وما وراء ذلك ؟ قيل له : الموت : فقال ما أسرع اليوم فى الشهر والشهر فى السنة والسنة فى العمر إن الأمر لغير ما نشتغل به . فانصرفت نفسه عن الدنيا وشهواتها . واجتمع إلى رجل كان يأنس إليه فحدثه عن النسك والنساك فاشتهر أمر ابن الملك حتى بلغ خبره حكيم سرنديب واسمه (برلام) فقال لأخرجن هذا الحى من بين أولئك الموتى ، فلما وصل إلى المدينة التى فيها ابن الملك خلع لبس النساك ولبس لبس التجار ، ونجح فى الاتصال بابن الملك وأقنعه بوجوب الزهد فى الحياة . وعلم الملك بهذا الخبر فغضب غضباً شديداً . لـكن لم يمض زمن طويل حتى اعتنق الملك ما استنكره بالأمس (١٤٧) .

هذه هى خلاصـة القصة الهندية قبل أن تصل إلى أوربا عن طريق العرب . وهى فى هذا القالب تخالف تلك المتداولة اليوم فى العالم المسيحى . وذلك لأنها أول ما انتقلت من الهند كان فى القرن السادس عندما ترجمت إلى الفهلوية أيام خسرو ، وعن الأخيرة نقلت إلى العربية فى النصف الثانى من القرن الثامن . ولم يكد يطلع القرن التاسع إلا واهتم المسيحيون بها وترجمت إلى اليونانية ترجمة تدعو إلى المسيحية وتبشر بالنسك . ومن ذلك الحين أخذ العلمـاء يترجمونها إلى مختلف اللغات متأثرين بالروح المسيحية . والشىء الجدير بالذكر أن قصة (برلام و يواسف) هذه التى عرفها

الغرب عن طريق الترجمة العربية القديمة عادت فى العصور الوسطى إلى العربية ثانية لكن فى ثوبها اليونانى أعنى هذا الثوب المسيحى، وأصبحنا نجد فى العربية نصين مختلفين لبرلام و يواسف .

كذلك القصص الخاصة بالحيوانات والتى كثيراً ما تتحدث عن الفرح والسرور أخذت فى الواقع عن الشعوب التى تؤمن بفكرة التناسخ . وقصة القديس (هوبرتوس) حامى الصيادين نجدها فى كثير من المصادر العربية التى عنيت بالحيوان . وقد وفق الدكتور (سنجر) (١٤٨) عام ١٩١٨ إلى إرجاع كثير من القصص العربية إلى أصولها الشرقية فى كتابه حول الشعر العربى والأوربى فى العصور الوسطى . وفى هذا الكتاب نقرأ أيضاً كيف وفق المؤلف إلى ربط قصص (مسّاى) التى تتفق كما عرضها (هنز نومان) (١٤٩) مع (برسفال) و إذا كان مستشرقو أوربا يعترفون علانية أن حظهم من دراسة الملاحم الفارسية وقصص البطولة العربية قليل جداً أدركنا أن النتائج التى وصلوا إليها خاصاً ما يتصل منها بشعر قصور ملوك وأمراء العصور الوسطى و إرجاعه إلى أصوله الشرقية توفيق عظيم (١٥٠) . أما قصة الشاعر الألمانى (جلرت) المعروفة باسم (القَدَر) فمأخوذة من قصيدة (جامى) (١٥١) المعروفة باسم (صحبة الأبرار) والتى مطلعها :

حكايت

كفت روزى بمناجات كليم　　　كاى جهاندار خداوند كريم

والموضوع الذى عالجه (شللر) فى قصيدته (الطريق إلى المطرقة الحديدية) والذى يلخص فى القول المأثور من حفر بئراً لأخيه وقع فيها هندى الأصل (١٥٢) .

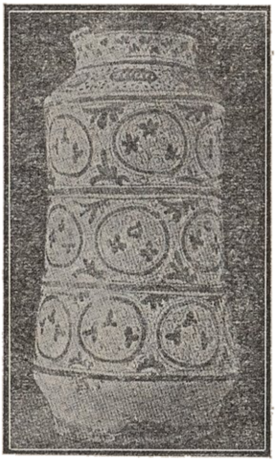
والرومنتيك الألمانى ترك أثراً بعيداً فى العالم الخارجى أكثر من الفن الإمبراطورى القديم ، وذلك لأن الفن الرومنتيكى الألمانى لم يتجه إلى العالم الكلاسيكى مستوحياً مثله العليا بل ولّى وجهه شطر الشرق خاصة فى العصور الوسطى . ولما وضع (فريدريش فون شليجل) كتابه الشهير عن حكمة الهنود ولغتهم فتح الأبواب التى كانت موصدة ، وعبّد بذلك الطريق بين الشرق والغرب . وما يقال عن فون شليجل يقال أيضاً عن (ريكرت) الذى عرّف الغرب بحكمة البراهمة وعقليتهم . وغيّر المواعظ والحكم والأمثال نجد كذلك القصص والشعر فالقطعة المعروفة باسم « الرجل فى أرض السوريين » صادفت فى ألمانيا قبولا حسناً كما أن المثل الأعلى للأنوثة الذى عرضه (ريكرت) للغرب مأخوذ عن أسطورة (مهابهارت سافترى) الهندية ، فهذه القطعة وغيرها قدمها (ريكرت) فى أسلوب سهل ولغة رفيعة . وغير (ريكرت) نجد فى ألمانيا الشاعر (أولند) واضع قصيدة (جليك فون أيدنهل) التى يعرض فيها للسعادة والحظ ، يعلق قيام السعادة على عدم كسر الكأس . وهذا العامل هو بعينه الذى نجده فى (ياتكه) البوذية (١٥٣) . ثم قصة الضربة السوابية هى تلك التى نجدها فى الصفحات الأولى من المخطوطة المعروفة باسم أخبار الدولة السلجوقية للسلطان مسعود بن محمود بن سيكنوجين الذى هرب من السلاجقة فتبعه عدد من الفرسان إلا أنه نصف أحدهم فهرب الباقون (١٥٤) . وقد حاول نفر من علماء أوربا منذ مائة عام بحث الآثار الأدبية التى تركها كتاب ألف ليلة وليلة على أدباء أوربا وكتّابها فانتهوا إلى أن هذا الكتاب تغلغل

إلى مسافات بعيـدة جداً لا فى الحياة الأدبية الأوربية فحسب بل فى الفنيـة أيضاً .

وضرب آخر من ضروب الأدب شاع وانتشر فى العصـور المتأخرة فى أوربا ألا وهو هـذا النوع من القصص المتصـل بالحيوان والذى يتخذ الحيوان موضوعاً . فهذا اللون من الأدب شرقى الأصل عرفه الشعر العربى الجاهلى قبل الأدب الأوربى بقرون ويكفى أن يشار هنا إلى لامية الشنفرى (١٥٥) التى يقول فيها :

وأَغْدو على القُوتِ الزَّهيـدِ كما غَدَا ... أَزَلُّ تَهـاداهُ التَّنـائِفُ أَطْحَـلُ
غَدَا طَاوِياً يُعـارِضُ الرِّيحَ هافياً ... يَخوتُ بأَذْنابِ الشِّـعاب ويَعْسِلُ
فلمّـا لَوَاهُ القُوتُ مِنْ حَيْثُ أَمَّـهُ ... دَعا فأجابتْـــــه نَظائِرُ نُحَّــل
مُهَـلَّلةٌ شِيبُ الوُجوهِ كأَنَّهــا ... قِـدَاحٌ بكَفَّيْ ياسِرٍ تتقَلْقَــلُ
أو الخَشْرَمُ المبعُوثُ حَثْحَثَ دَبْرَهُ ... مَحا بِيضُ أَرْساهُنَّ سامٍ مُعَسِّلُ
مُهَرَّتَهٌ فُوهٌ كأَنَّ شُدُوقَهـا ... شُقُوق عِصِيّ كالحاتٍ وبُسَّـلُ
فَضَجَّ وضجّتْ بالبراحِ كأَنَّهــا ... وإِيَّاهُ نَوحٌ فوق عليـاء ثُكَّلُ
وأَغضى وأَغْضَت وأتسى وأتست به ... مَراميـــلُ عَزَّاها وعَزَّته مُرْمِلَ
شكا وشكتْ ثم ارْعوَى بعدُ وارْعَوَتْ ... وللصَّـبْرُ إِنْ لمْ ينفَعِ الشَّـكْوُ أَجْمَلُ
وَفاءَ وفاءَت بادراتٍ وكُلُّها ... على نَكَظٍ ممـا يُكاتِمُ مُجْمِـلُ
وتشرَبُ أسارى القَطا الـكُدْرُ بَعدَما ... سَرَتْ قَرَباً أحْشاؤها تتَصَلْصَـلُ
هَمَمْتُ وهَمَّتْ وابتَـدَرْنا وأَسْـدَلَتْ ... وشمَّـرَ مِنّى فارِطٌ متمَهّـلُ
فوَلَّيْتُ عنهـا وهى تَـكْبو لِعُقْرِه ... يُبـاشِرُهُ منها ذُقونٌ وَحَوْصَلُ
كأَنَّ وَغَاها حَجْرَتَيْهِ وحولهُ ... أَضاميمُ مِنْ سَـفْرِ القَبـائِلِ نُزَّلُ
تَوافَيْنَ مِنْ شتّى إليـه فضمَّهـا ... كما ضَمَّ أَذْوادَ الأَصارِيمِ مَنْهَلُ
فَعَبَّتْ غِشَاشاً ثم مرّت كأَنَّهـا ... مَعَ الصُّبح رَكْبٌ من إحاظةَ مُجْفِلُ

فنى هذه الأبيات نقرأ هذا العرض الجميل للذئاب وصياحها ، والقطا وتحليقهـا عند الشرب . وغير لامية العرب ، الـكثرة المطلقة من الشعر العربى حيث نقرأ وصف النياق أو حمر الوحش أو مناظر الصيد . و بينما نقرأ فى شعرنا العربى هذا الضرب الرفيـع من ضروب الأدب ، إذ برجال العصر الـكلاسيكى يضعون أنفسهم فى مستوى يعارض مستوى الشاعر الحقيقى الذى يجب عليه أن يستوحى سائر الـكائنات سواء كانت حيوانات أو نباتات . لقد أهمل شعراء أوربا الأولون الحيوان فلم يعنوا به ، ولم يتنبه إليه شعراء الغرب إلا فى العصور المتـأخرة متأثرين بالعرب والشعر الإسلامى . ولا يفوتنا أن نذكر هنا شخصية (حى بن يقظان) التى عرفها العرب منذ زمن قديم (١٥٦) والتى هى صاحبة الفضل الحقيقى فى نشأة مجموعة القصص الغربية المتأخرة والتى تنسب إلى (روبين صون) (١٥٧) .



رأينا أثر الشرق فى الفن والتصوير، ورأيناه كمادة هامة لفريق من المصورين والرسامين الأوربيين ، والآن ينتقل المؤلف إلى الحديث عن الشرق وأثره فى الآداب الأوربية كمادة للكتّاب والشعراء . وأول من عنى بالشرق من رجال الأدب الغربيين فكتور هوجو فى قصائده المعروفة باسم (أورينتال) وقد نقلها إلى الألمانية (فرايليجرات) و (جيبل) وقد اتهم أولهما بالوقوع فى بعض الأخطاء لجهله بالشرق وشئونه . ولكن هل اليونان الذين يصورهم (جوته) فى شعره هم يونانيون حقيقيون وأليست قطع (جوته) الخالدة التى عالج فيها المسائل اليونانية أمثال (افيجنيا) أبعد ما تكون عن اليونان كما وصفها (شللر) ؟ وهل يستحسن أن تكون الصورة التى يعرضها الشاعر أو الأديب كتلك التى تلتقطها عدسة المصور ؟ وغير أولئك النفر الذين سبقت الإشارة إليهم نجد أمثال (مريه) و(فون فيسنتى) و (البارون سوتنر) و (ميلنا برينلز برجر مرازوفى) و (أندريس) وغيرهم الذين عنوا خاصة بالنفس الشرقية والشرق . كما أدرك (جويلروب) فهم وجهة نظر الهنود فى الحياة كما يتجلى لنا ذلك فى مؤلفيه العظيمين (بلجر كامانيتا) و (فلتنفندرر) .

وشعر ألمانيا العاطفى كان إبان النهضة الكنسية الغنائية متأثراً بالمزامير العبرية . وكثيرون من الشعراء الذين تفرغوا لهذا النوع من الشعر العاطفى فى ألمانيا ما زال شعرهم حتى اليوم واقعا تحت هذا التأثير وهو يكون جزءاً هاماً من الأدب الشعبى الألمانى . وكل فرد عنده شىء من الاستعداد لإدراك الحقائق التاريخية يقرر أنه من المستبعد جداً أن أدباً عبرياً سامياً يَمُت إلى الفينيقية مثلا لغة وأدبا بصلة قرابة قوية

استطاع أن يلعب هـذا الدور المستقل غير متأثر بالآداب السامية الأخرى التى عاش فى كنفها . فمنذ معرفتنا بوجود مزامير التو بة البابليـة ونحن نـكاد نجزم أن كتاب الأغانى اليهودى الذى كان للجماعة اليهودية بعد السبى نشأ كما يعتقد (فلهوزن) إبّان السبى وتحت التأثير البابلى لذلك يجب أن يسلم بأن فن الشعر البابلى ما زال إلى اليوم حياً فى الشعر الألمانى . وتوصل جماعة من العلماء إلى إثبات أن غزل الفروسية الذى كان منتشراً فى العصور الوسطى بألمانيا متأثر تأثراً كبيراً بغزل الفرسان الفرنسيين الذى كان منتشراً فى بعض أجزاء فرنسا والمعروف باسم شعر التروبادور . و يقرر أمثال (برداخ) و (سنجر) أن هذا الضرب الأخير من ضروب الغزل أُخذ فى الواقع عن الغزل العربى . فالشرق والغرب يتفقان فى هـذه الظاهرة ، والعـامل المشترك بينهما الإشادة بالمرأة وجمالهـا ، و بينما هذه الإشادة شرف للمرأة الغربيـة إذ بها عار كبير لأختها الشرقية . ولم يقف الأمر عند هـذا الحد بل نجد فى القرن التاسع عشر زعيم الغزلين الشرقيين (حافظ) شيرازى يغزو أوربا بغزليـاته عن طريق شاعر ألمـانيا (جوته) الذى وضع كثيراً من القصائد التى تدور حول الغناء ، والعشق ، والحكمة والأمثال ، والشرب ، ومواضيع أخرى . وجمع الشاعر القصائد ذات الموضوع الواحد فى كتاب خاص فهناك (مُغنى نامه) و (حافظ نامه) و (عشق نامه) و (تفكير نامه) و (حكمت نامه) و (تيمور نامه) و (زليخا نامه) و (ساقى نامه) و (مَثل نامه) و (خُلد نامه) وغيرها من الكتب التى يطلق (جوته) عليها (الديوان الغربى الشرقى) .

وغير (جوته) نجد الشاعر الألمـانى (بودنشتت) الذى نشر (مرزا شافع) أكثر من مائة مرة . وقد تركت هـذه الشاعرية الشرقية الغراميـة أثراً قوياً جداً فى شعر الغرب وغزلياته .

وغير الشعر الإسلامى نجد فى شعر (جوته) أيضاً أثراً للأدب الصينى (١٥٨)

كما وجد إليه الأدب العبرى طريقه . وقد عالج الموضوع الأخير العالم (فكتور هين) فى بحثه عن (جوته) ولغة الكتاب المقدس (١٥٩) . فقد جاء فى هذا البحث القيم كثير من الشواهد التى تبين عظم هذا الأثر اكتفى هنا بذكر أمثلة منها :

لا تنزع عنى ثوبى الأبيض .

لأسترح هناك قليلا .

فهذه الصورة مأخوذة من رؤيا يوحنا الإصحاح السادس الآية الحادية عشرة حيث جاء : فأعطوا ثياباً بيضاً وقيل لهم استريحوا قليلا .

كذلك قول (جوته) :

آه الذى يحبنى ويعرفنى بعيـــــد عـــنى

نجده فى سفر أيوب ص ١٦ آية ١٩ حيث جاء : —

الذى يعــرفنى فى الأعالى لا يـــــرى أبــداً

والشىء الجدير بالملاحظة أيضاً فى الشعر العاطفى الأوربى اهتمامه بالقافية ، فنحن نعلم أن الشعر الكلاسيكى لم يوجه إلى القافية عناية تذكر بخلاف الحال فى الشعر العربى منذ أقدم عصوره. فهذه الظاهرة جعلت كثيرين من رجال الأدب يميلون إلى الاعتقاد أن القافية جاءت أوربا عن طريق الشرق . وهذا الرأى هو الذى دفع بعض المتعصبين المتعنتين من رجال الغرب أمثال (فيلا موفيتس) إلى محاربة القافية فى الشعر محتجاً بعدم ورودها فى الشعر الكلاسيكى من ناحية ، وشيوعها لدرجة عدم الاستاغة من ناحية أخرى (١٦٠) . والواقع أن القافية هى التى تخلق هذا الأثر القوى فى شعر (جوته) الوجدانى ، والقافية أيضاً هى صاحبة الفضل الأول فى إيجاد هــذه الموسيقى الشعرية الجميلة التى نسمعها فى شعر (بلاتن) ونثر (ستيفن جورج) وغيرهما من أعلام وفطاحل اللغة وأئمة الشعر . ولولا هــذه القافية لتلاشى علم النغم والصوت والجرس .

ولكى ندرك الفرق بين الكلام المقفى والمرسل يكفى أن نجرد مثلا بعض أبيات الشاعر (بلاتن) من قوافيها ونعالجها فى بحر (الهكسامتر) الطويل الممل ، وعندئذ فقط نستطيع إدراك التقدم العظيم الذى بلغه الشعر بفضل استخدام القافية . ومهما حاول أنصار المدرسة الكلاسيكية محاربة القافية فلن يكتب لهم التوفيق ، ونظرة إلى الشعر الجرمانى القديم تكفى إلى الاهتداء إلى هذه المحاولات الأولية التى حاولها الشعراء المتقدمون عند ما استخدموا القافية كوصلة صوتية لا بد منها مما يؤيد شعور المتقدمين بالنقص ومحاولتهم إتمامه . ولا نذهب بعيداً ونقرر أن حتى أنصار الشعر الكلاسيكى إذا ما حاولوا اليوم التعبير عن آرائهم وعواطفهم بألفاظ قوية وعبارات رصينة لجأوا إلى السجع والقافية ، بخلاف استخدام هذه العبارات المرسلة التى نجدها فى وزن (هكسا متر) مثلا . فقد أضر هذا البحر بالأدب الألمانى ضرراً بليغاً، فلو قدر لشاعر ألمانيا (جوته) أن يضع قصته (هرمن ودروتيه) نثراً لصادفت من قلوب قراء الأدب الألمانى قبولا حسناً بخلاف هذا النوع من الإعراض الذى يتلقاها به قراؤها فى أسلوبها الهكسامترى الطويل الممل . ومن حسن الحظ أن عنى بعض شعراء وكتاب الألمانية فى العصر القديم بضرب من ضروب القافية فسموا باللغة وهذبوها ، فثقفوا جرسها ، ونمقوا صوتها .

وغير القافية التى قد يختلف بعض العلماء فى وطنها الأصلى نجد أثراً أدبياً آخر يغزو الأدب الأوربى فى العصور الوسطى ، وهو هـذا الضرب من فنون الشعر الذى انتشر بين طبقات الشعب المختلفة ، وشغل من أدبها المـكان الأول، أعنى الزجل. فهذا الفن من فنون الشعر السبعة التى نشأت فيما بعـد فى الأدب العربى مختلف فى وطنه كما اختلف العلمـاء أيضاً حول الوطن الأصلى للمواليا ، فهنـاك رواية تذكر بغداد ومخترعته جارية عاشت أيام هرون الرشيد ، ورواية أخرى يفهم منها ضمناً أن وطنه بلاد المغرب ، واخترعه رجل يقال له راشد ، وقيل أبو بكر قزمان . ويذكر ابن خلدون أن هذا الفن ظهر فى الأندلس وأنه من مستحدثات أهلها ، وأن أول من أبدع فيه أبو بكر قزمان وإن كانت الأزجال قد قيلت قبله . وعلى كل حال فهذا الفن من الشعر بإجماع جميع الروايات أينع وكثر فى الأندلس دون سائر الأقطار الإسلامية . وهـذا الضرب من فنون الشعر العربى يمتاز بصدق تمثيله لنفسية الإنسان وخواطره ، وقد ظهر بعد أن مهد له شعراء العرب من جاهليين وإسلاميين بشعرهم الغزلى الذى شادوا فيه بالمرأة وجمالها . هذه المرأة التى احتلت من شعرهم المـكان الأول ، حتى إن الشاعر العربى ليستهل قصيدته أو حوليته بالغزل . هذه النفسية العربيـة بعينها التى جعلت العربى قبل غيره يعترف بأثر المرأة ومكانتها فى حياته الأدبية أو الاجتماعيـة اضطرت الشعر العربى إلى الإفصاح والتعبير عمـا يجول بخاطر الشاعر، وهذه الظاهرة لم تظهر فى أوربا إلا بعد أن احتكت بالعرب فى الأندلس وصقليـة والحروب الصليبية . وقد انتشر هـذا الفن فى جنوب فرنسا حيث نجد جماعة التروبادور ، ومن ثم يشق

هذا الفن طريقه إلى مختلف الممالك الأوربية خاصة إيطاليا ، كما أشار إلى ذلك العلامة الألمانى (جراف شك) وأثبته (١٦١) .



تويج العــذراء

والآن ننتقل إلى المسرح ونلقى بنظرة على الأدب المسرحى الذى استعار الكثير من الكتاب المقدس والشرق . فعند (فولتير) نجد الأصل الصينى فى (يتيم الصين) كما نجد فى (تورندوت) لشيللر الأثر الفارسى حيث اقتبست المادة من كتاب ألف يوم ويوم (١٦٢) . ومن الثابت أيضاً أن المسرح الأوربى تأثر فى القرن الثامن عشر بالفن الصينى فأخذ عنه النوع الغنائى التمثيلى المعروف بالأوبريت . فلولا الصين ما استطاع هذا الفن أن يبلغ ما بلغه فى أوربا ، وقد عرض لهذا الأثر الصينى العالم (ريشفين) فى كتابه السالف الذكر وقال : إنه من الصعب جداً أن يبالغ فى هذا الأثر : وعن الصين أيضاً أخذت أوربا الفن المسرحى المعروف بالظل الصينى الذى استغلته جماعة الرومانتيكيين فى ميونخ التى كانت تمثل ألعاب خيال الظل السوابية وتعنى بإخراجها ، ومن ثم أخذت تسعى وتعمل جاهدة لترقيتها (١٦٣) . وعن اليابان جاء فى القرن التاسع عشر المسرح المتحرك الذى اخترعه عام ١٧٦٠ م (نميكى شو زوس) ولم تعرفه مدينة ميونخ إلا فى السنوات الأخيرة فقط . وفائدة هذا المسرح أنه يقضى على أوقات الفراغ التى كانت تقطع سلسلة تفكير الزوار الذين ينتهزون فرصة تغيير مناظر المسرح وينصرفون إلى مختلف الأحاديث التى قد لا تتصل بموضوع المسرحية .

وأخذ الغرب عن الشرق أيضاً كثيراً من العادات والتقاليد التي تجرى في حياته اليومية من وسائل تسلية وخرافات (١٦٤) فلعبة الشطرنج التي ينصرف إليها لاعبان و ينسيان العالم الخارجي لعبة شرقية، وقد ذكر (هابرلندت) (١٦٥) أن فرسان العصور الوسطى كانوا إذا ماجلسوا يلعبون الشطرنج، أقرب إلى (هركوليس) أمام آلة الغزل من أي شخص آخر، وذلك لأن هؤلاء الفرسان كانوا لاينتهون من لعبة إلا و يقذفون بعضهم بالشخوص. أما الوطن الأصلي لهذه اللعبة فبلاد الهند كما يدل على ذلك اسمها و يتبين من خصائصها. فالعالم الإسلامي يطلق عليها (شطرنج) وهو اسم مشتق من السنسكريتية (تشطورنجا) أعني أربعة أقسام، أي جيش. وفي النص الفهلوي (مادهيجن شطرنج) (١٦٦) نقرأ خبراً عن الملك الهندي (ديوسرم) الذي أرسل إلى كسرى أنوشروان هذه اللعبة مكونة من ستة عشر شخصاً من الزمرد ومثل هذا العدد من الياقوت. ولعل أقدم إشارة عربية إلى هذه اللعبة قول ابن المعتز.

وحيطان كشطرنج صفوف فما تنفك تضرب شاه ماتا

و يذكر اليعقوبي في تاريخه (ج ١ ص ١٠٣ طبع أوربا):

فاجتمعوا على حكيم من حكمائهم (يقصد حكماء الهند) يقال له —قفلان— وكان ذا حكمة وفطنة و رأي، فذكروا ذلك له فقال: أنظروني ثلاثاً: ففعلوا ذلك. وخلا مفكراً ثم قال لتلميذ له: أحضرني نجاراً وخشباً من لونين مختلفين أبيض وأسود: فصور صورة الشطرنج وأمر النجار فنجزها، ثم قال له أحضرني جلداً مدبوغاً: فأمره أن يخط فيه أربعة وستين بيتاً، ففعل ذلك فنصب ناحية ثم تجاولا حتى فهماها

فأحكماها ، ثم قال لتلميذه : هذه حرب بلا ذهاب أنفس : ثم حضره أهل المملكة فأخرجها لهم فلما رأوها علموا أنها حكمة لايهتدى لها أحد . . إلخ

وغير الشطرنج أخذت أوربا عن الشرق (القرق) و (الدام) (١٦٧) ، لكن الشيء الجدير بالملاحظة أن المسعودى فى مروج الذهب (جـ ١ ص ١٥٩ طبع باريس) يحاول إيجاد علاقة بين الشطرنج والفلك ، فهو يقول عند حديثه عن ملوك الهند : إن فى أيام الملك (بلهبت) صنعت الشطرنج ، وجعلها مصورة تماثيل متكلمة على صورة الناطقين وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق ، وأقام لذلك أمثالا للأجسام العلوية التى هى الأجسام السماوية من السبعة والاثنى عشر ، وأفرد كل قطعة منها بكوكب وجعلها ضابطة للمملكة . وليس المسعودى هو الوحيد الذى يذكر هذا الرأى فالبيرونى يقره أيضاً ووردت إشارتان فى الكتاب الثانى من بستان سعدى يفهم منهما أن فى القرن الثالث عشر كان يجوز ترقية الفلاح (العسكرى) الذى يبلغ صف العدو الخلفى إلى وزير (عند الغرب ملكة) (١٦٨) كما نقرأ فى نفس المصدر ما يفيد أن اللاعب الماهر قد يتنازل عن بعض شخوصه لخصمه الضعيف (١٦٩) . أما إباحة انتقال الملك إلى البيت الثانى بعد بيته يميناً أو يساراً وقفز الطابية على الملك أشار إليه حافظ (١٧٠) . أما كلمة (شخ Schach) ففارسية الأصل وهى (شاه) معناها (ملك) وكلمة (مات) التى تستعمل فى ألمانيا فى عبارة (شخ مات) فهى العربية (مات) وقد ورد ذكر هذا الاصطلاح مرتين فى تاريخ اليعقوبى ص ١٠٣ حيث نقرأ (شاه مات) . أما الشخص الذى يطلق عليه فى ألمانيا (ملكة) فهو فى الشرق الوزير وذلك لأن الملكة الشرقية لاتنتقل بحرية بين الرجال كما هو الحال مع ملكة الشطرنج ، أما الاسم القديم فى أوربا للطابية فهو الذى مازلنا نجده فى الفرنسية (روك Roc) وفى الكلمة الألمانية (روشيرن rochieren) وهو اسم الطائر العظيم المعروف باسم (رخ) ويقال إن بيضه قد وجد فى مدغشقر .

ومثل الشطرنج اللعبة المعروفة باسم (قفز الحصان) فهى أيضاً هندية الأصل (١٧١) . ومن الشرق كذلك جاءت لعبة الدام والطاولة وألعاب أخرى . ويعتقد (جوستاف شليجل) (١٧٢) أن لعبة الدام عرفتها الصين منذ زمن قديم جداً ، ويحاول هـذا البحاثة أن يثبت أنها ترجع هناك إلى الألف الثالث ق . م . وهذا رأى فيه نظر ، وهو يذكر أيضاً أن هذه اللعبة وجدت فى (باكينج) تحت شجيرة ليمون على قبر الملك (مو) من أسرة (تشي) (١٠٠١ — ٩٤٧) ق . م . وذلك فى حفرة صخرية . ويعتقد أيضاً أن هذه اللعبة كانت فى الأصل فلكية حتى قيل إن الشخص الذى يجيد حساب النجوم ومجارى الأفلاك يتقن هذه اللعبة وينبغ فيها . أما لعبة الطاولة فمتصلة بالطاولة التركية والنرد الفارسية اتصالا قوياً كما أشار إلى ذلك جورج يعقوب فى مقدمة الجزء الخامس عشر من مطبوعات المكتبة التركية التى كان يتولى هو إصدارها . وتتبع (هملى) تاريخ هذه اللعبة ونشأتها فانتهى به البحث إلى أن وطنها الأصلى بلاد الصين (١٧٣) . أما اللعبة المنتشرة فى ألمانيا والمعروفة باسم (كرديس) أو (بونين شبيل) فقد أثبت أخيراً راعى الكنيسة (فريتزيان) مدير (زيلهوفر) أنها ترجع إلى بلاد فارس (١٧٤) . وكان قد أرسلها الشاه من مائة عام مضت إلى القيصرة كاترين كما أرسلت إلى (كرديس) مجموعة أخرى منها ، وهناك استطاع (فريتزيان) مشاهدتها عند البارون فون شتخلبرج . وكان ذلك عام ١٩٠٨ . وقال (يان) أيضاً إنه فى نفس الوقت أخذت اللعبة الصينية المعروفة باسم (دومينو ماتسوباى) أو (مايهونج) تغزو العالم .

أما لعبة رأس السنة المعروفة فى بروسيا الشرقية باسم (كليك أوند سيكن) فترجع إلى علم الفلك كما كان معروفاً فى العصور الوسطى . أما الاسم الرومانى القديم لهذه اللعبة فهو (نيب) فقد استعمل فى إسبانيا فى القرن الرابع عشر وأرجعه جورج يعقوب إلى الكلمة العربية (لعب) (١٧٥) . وفيما يتعلق بإبدال الحروف العربية فى الإسبانية يرجع إلى اسم المدينة الإسبانية (نيبلا) فهى فى العربية (ليبلا) كذلك الكلمة العربية (ليمون) فهى فى البابلية (نيمون) . وفى العربية (لقب) أصبح (نقب) هكذا ذكر (سنوك هورجرونيه) فى الكتاب الذى قدم لجولد زيهر . ويذكر (ى . ى . هس) أن كلمة (نيجف) عند عتيبة هى (نجف) عند أولاد على ويعتقد (نولدكه) أن اللعبة الواردة فى قول عمرو بن كلثوم :

كَأَنَّ سُيُوفنَا مِنَّا ومِنْهُم   مَخَاريقٌ بأيدى لاعبينا

تقرب من اللعبة الألمانية المعروفة باسم (بلومبساك) . وذكر ابن الفقيه (القرن العاشر) ص ٦٦ ما يؤيد هذا . وفيما يتصل باللعبة العربية فقد ذكرها (ت . كوفالسكى) فى طبعته لقيس بن الخطيم ص ٣٠ — ٣١ كما عرض الشاعر التركى محمد توفيق تحت عنوان (حلوه صحبت) للعبة المنتشرة فى تركيا والمعروفة باسم (تورا) وما هى إلا لعبة (بلومبساك) الألمانية . أما لعبة (فيشرستيشن) الشعبية والمنتشرة فى إقليم الالزاس فمصرية قديمة ، وقد عرفها الشعب المصرى فى عصر الدولة القديمة (١٧٦) . والطائرات المصنوعة من الورق كلعب للأطفال صينية الأصل اخترعها الصينى (هن سين) (١٧٧) . عام ٢٠٢ ق . م . وهذه اللعبة فى الصين أجمل منها فى أوربا . فالصينيون يعنون بها عناية عظيمة ، فهم يقلدون الحيوانات والزهور ، وأحيانا تصنع على أن تخرج منها بعض النغمات الموسيقية بمجرد تعرضها للهواء فى طبقات الجو المختلفة (١٧٨) . ومن الصين انتقلت حسب بعض الآراء

الشعبية إلى (كمبودشا) (١٧٩) . وكما أن هذه اللعبة هى تسلية الكبار (١٨٠) والصغار فى الشرق الأقصى كذلك الحال فى تركيا حيث يطلق عليها الأتراك اسم (كرتل) وقد انتقلت إلى أوربا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر (١٨١) عندما أخذت أوربا تهتم بالصين ، والأسماء التى أطلقت عليها فى بعض الممالك الأوربية مثل الفرنسية (سرف فيولنت) أى الخنزير الطائر أو فى الإنجليزية (كَيْت) أى حدأة تدلنا على نوع الحيوان أو الطائر الذى كانت تصوره هذه اللعبة فى الصين وقت استعارة أوربا لها . ويرجع العالم الموسيقى (كورت سكس) الآلة الموسيقية المعروفة باسم (بروم تويفل) أو (فلد تويفل) المنتشرة فى بروسيا الشرقية والتى تعزف عادة فى رأس السنة إلى أصل هندى (١٨٢) .

والمصارعة المعروفة باسم (يويتسو) والتى انتشرت فى ألمانيا عقب انتصار اليابان ترجع فى الواقع إلى اليابان التى كانت معروفة فيها منذ منتصف القرن السابع عشر (١٨٣) .

ولولا تحريم الإسلام للخمر ما انتشرت القهوة فى العالم الإسلامى وانتقلت إلى أوربا وقضت فى ألمانيا على مشروب الألمان القديم (البوظة المعروفة باسم هرزبراى) واللفظة العربية القديمة (قهوة) تدل أصلا على النبيذ ، ومن ثم تطور معناها مع الزمن عندما قضت على النبيذ وحلت محله . وأول مقهى أسس كان فى القسطنطينية أسسه سوريان عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤/١٥٥٥م تحت القلعة (١٨٤) وكتب (روفولف) عام ١٥٨٣ م متعجباً من هذا الشراب الأسود عند الأتراك فقال وجرت العادة فى كل صباح وفى الأماكن العامة أن يجلس القوم وأمام كل فرد إناء فخارى أو صينى عميق وبداخله هذا الشراب الأسود الذى يشربونه ساخناً . كذلك الجزء الثانى من كلمة (كفيبون) أعني (بون) هو تحوير شعبى للفظة العربية (بن) والتسمية القديمة التى أطلقت على شجيرة البن كما نجدها فى المراجع الأوربية القديمة هى (أربور بن كم فركتوس سوبرنا) ومنها أن لفظ (بون) لا علاقة له البتة بالكلمة الألمانية (بون فابا) أما (مكا) والصواب (مخا) فهو اسم الميناء التى اشتهرت قديماً بتصدير البن ، وفى الشرق يطحن البن طحناً ناعماً جداً وبعد ذلك تحضر منه القهوة دون وضع لبن عليها ، وغالباً بدون سكر ، وإذا استعمل فقليل . والقهوة إلى جانب كونها شراب منبه جداً وضرورى فى الشرق الحار المنيم فهى مغذية أيضاً وتدل إحصائية عام ١٩١٨ التى عملت فى ألمانيا على أن عدد شاربى القهوة من الألمان أكثر من شاربى الجعة أو الكونياك (١٨٥) .

ومنافس القهوة هو الشاى وقد أرسلته الصين إلى أوربا فى القرن السابع عشر

ويؤيد ذلك أن اسمه مكون من مقطع واحد أما اختلاف اسمه بين الهولنديين (تيه) والانجليز (تى) فيرجع إلى اختلاف فى لهجتين صينيتين . فالهولنديون أخذوا الشاى من فرموزا . أما ألمانيا فقد عرفته عن طريق الهولندى (تولبيوس) وقد كان طبيب أميرها الخاص ، وكان هذا الطبيب مولعاً بشرب الشاى (١٨٦) . وقد أثّر هذا المشروب ذو الرائحة الطيبة فى الثقافة والمجتمع والاقتصاد والعلاقة بين الشرق والغرب تأثيراً بليغا . وفى القرن السابع عشر نجد فى اليابان جماعات لشرب الشاى تعرف باسم (شانو يو) وكانت هذه الجماعات اليابانية تقوم بنفس الدور الذى تقوم به مثيلاتها فى أوربا الآن ويجب ألا ننسى الشاى وضريبة استيراده التى دفعت أمريكا إلى إعلان الحرب ضد انجلترا والحصول على استقلالها (١٨٧) .

والاسم التركى القديم للبن المتجمد الذى كان شائعا بين القبائل البدوية منهم والذى ما زال إلى اليوم الطعام المحبوب عند الأتراك العثمانيين أعنى (يوغرت) عرفه الرحالة الغربيون الذين سافروا إلى الشرق ، وقد استوطن الطعام واسمه أوربا وهو غذاء لذيذ الطعم خال من المواد الكحولية لذلك اشتهر وذاع أمره . ويستخدم الترك عادة لبن الجاموس لتحضيره كما أن العنصر الأساسى اللازم لهذه العملية هو الذى اكتشف عام ١٩٠٦ واسمه باسيلوس بلغاريكوس (١٨٨) ، وأقدم نصّ جاء فيه ذكر هذا النوع من اللبن هو ذاك الذى نجده عند (كمفر) فى مؤلفه (امونيتاتس اكزوتيكا) حيث قال ما معناه : إن اليوغرت فى التركية معناه لبن متجمد مقبول الطعم وفى الفارسية (مست) وفى بتافيا الهندية (تير) .

والشراب الفرنسى الوطنى المسمى (ابزنت) جزائرى الأصل ، وهو يستخدم لتحسين طعم الماء الردىء . ويعتقد (نولدكه) أن اللفظ جاء من الفارسية (١٨٩) . أما الشراب المعروف باسم (عرق) فعربى التسمية (١٩٠) ، والشراب المعروف

باسم (بنج) فارسى الأصل فلفظ (پُنش) فى الألمـــانية ما هو إلا اللفظ الفارسى الدال على العدد خمسة (١٩١) وذلك لأن هذا الشراب يعمل فى الهند من خمس مواد (عرق ، سكر ، عصير الليمون ، توابل ، ماء) وقد أخطأ الشاعر (شللر) فى قصيدته (أغنية البنج) فذكر أربعة عناصر فقط ونسى التوابل . وأقدم نص جاءنا هو الوارد فى (هو بسون يوبسون (١٩٢) . أما الجعة فأصحابها هم المصريون ، وكانت شرابهم المحبوب فقد صنعها قدماء المصريين منذ عصور قديمة جداً و يستطيع العلماء أن يفرقوا أيام الدولة القديمة بين أربعة أنواع منها الجعة السوداء(١٩٣) و يعتقد (هوررزنى) (١٩٤) أن الجعة البابلية أقدم من المصرية ، و يرجح أن بابل عرفتها فى وقت لن يكون أحدث من عام ٢٨٠٠ ق . م . وعن الشرق انتقل هذا الشراب وصناعته إلى الغرب . كذلك اللفظ الدال على النبيذ فى اليونانية واللاتينية سامى الأصل والرومان هم الذين قاموا بنشره كما نشروا الشراب و إن كان قد بولغ فى تقدير مجهود الرومان فى هذا الميدان ، وذلك لأن العنب كما يعرف من تقارير النورمانديين كان موجوداً فى حوض الرين قبل تأسيس روما بزمن طويل ثم أن أجود أنواع العنب الألمانى مثل (يوهنيسبرجر) لم يدخله الرومان بل عرفته ألمانيا فى العصور الوسطى عن طريق الأديرة التى أخذته عن بلاد الشام .

أما الزهرة البيضـاء ذات الرائحة الطيبـة والتى تدخل إلى النفس الفرح والسرور والتى تنتجها الحبة المعروفة باسم الحنطة السوداء وتغطى مساحات رملية واسعة تتغذى من رحيقها جماعات كبيرة من النحل فأصلها من منشوريا ، وقد جاء بها المغول إبان فتوحاتهم العظيمـة . وإذا تنقل الرجل الأوربى الشمالى إلى إيطاليا ليمتع نفسه بطبيعتها الجميـلة ومناخها المعتدل فأول نخلة يلقاها هى واحدة من نخيل شاطىء الرفيرا وكل هـذا النخيل يرجع إلى تلك النخـلة التى أمر عبد الرحمن الأول بإحضارها فى القرن الثامن الميلادى من الشام إلى إسبانيا وأنشد فيها أغنيته المشهورة التى جاء فيها :

تبدت لنا وسط الرصافة نخـلة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى   وطول التنـائى عن بنى وعن أهلى

أما السكر ووطنه فيرجعان إلى الأقاليم الشرقية الآرية فاللفظ الدال على معنى سكر فى السنسكريتية هو — كهندا — ومنها نجد فى الإيطالية — كنديرى — أى يغطى بالسكر ومنها اشتقت لفظة — كنديتور — أى صانع الحلوى . أما صـناعة السكر فيرجع الفضل فيها للعرب ، فالعرب هم الذين جاءوا بالقصب إلى إسبانيا ويظهر أن إقليم البنغال هو وطنه الأصلى وإن كان (فون ليبمان) يعتقد أن القصب البرى لا يمكن التأكد منه (١٩٥) ومن وطنه الأصلى ، ويذكر جورج يعقوب أن زميله (تشللر) أخبره أن النوع المعروف باسم (زخاروم سبونتارم) هو القصب البرى . أما صـناعة السكر فقد اهتم بها الشرق منذ عصور قديمة جداً كما يرجح أن مدينة البندقية لعبت دور الوسيط بين الشرق والغرب . والكلمة المعروفة باسم (مرتسيبان) ليست مركبة

من (مرتسى و باتيس) أى (خبز مرقس) ، وهى أيضاً ليست الكلمة الفارسية (مرزبان) كما ظن آخرون بل هى عبارة عن الكلمة العربية (موثبان) أى (الملك أو الأمير إذا قعد ولم يخرج للغزو) وقد قال بهذا الرأى (كليبر) (١٩٦) أما حرف (ر) الذى نجده فى اللفظة المنتشرة فى أوربا فقد دخل الكلمة عن طريق الإيطاليين .

ومادة (وثب) تدل فى العربية الشمالية على معنى قفز وفى العربية الجنوبية نجد المعنى السامى القديم (جلس) وفى هذا المعنى تستعمل الكلمة أيضاً فى العبرية ، ويتندر العرب كثيراً عن الحوادث التى وقعت من جراء الاختلاف فى فهم هذه الكلمة ، فقد روى أن (زيد بن عبد الله بن دارم) وفد على بعض ملوك حمير فألفاه فى مُتَصَيَّد له على جبل مُشْرف فسلم عليه وانتسب له ، فقال له الملك « ثب » أى أجلس ، وظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل فقال «لتجدنى أيها الملك مِطْواعاً» ثم وثب من الجبل فهلك ، فقال الملك : ما شأنه ؟ فخبروه بقصته وغلطه فى الكلمة ، فقال : « أما أنه ليست عندنا عربيّت : من دخل ظَفار حَمَّر[1] : ويعتقد أيضاً أن العرب أطلقوا هذه التسمية على العملة البيزنطية لوجود صورة المسيح جالساً عليها واستعمله الشرقيون القاطنون على شاطىء البحر الأبيض المتوسط فيما بعد للدلالة على مكيال خاص ثم للتعبير عن صندوق ذى حجم خاص . وفيما يتصل بالخضراوات ، فالسبانخ دخلت أوربا من فارس عن طريق العرب بإسبانيا، واللفظ (ارتيشوك) فى الالمانية أو الانجليزية والفرنسية (ارتيشوت) والإيطالية (ارتيوشو) والإسبانية (الكرشوفا) هو فى العربية (الخرشوف) كذلك الأكلة الألمانية الشعبية المعروفة باسم (زور كروت) (١٩٧) جاءت عن الصقالبة فى العصور الوسطى ويرجح أنها أكلة شرقية . أما الوطن الأصلى لأهم التوابل فالشرق وما زال كثير من هذه التوابل المستعملة فى أوربا يحمل اسمها الشرقى مثل (بفيفر) .

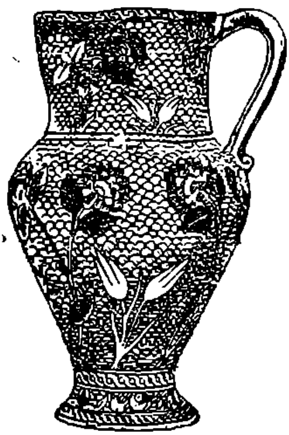
---

(١) الصاحبى لابن فارس ص ٢٢

ويلمس أثر الشرق أيضاً فى حدائق أوربا وحقولها وطرقها وشوارعها حيث تقوم على جوانبها أشجار الكستناء البرية ، وفى الخريف تخرج ثمارها الوضاءة الجميلة ، فقد جلب هذه الشجرة وغيرها من مختلف الأشجار والأزهار الأتراك عند تقدمهم من آسيا إلى أوربا ، وذلك أنه حدث أن مروا بكثير من الأقاليم الفارسية فأخذوا منها كثيراً من الزهور التى قوت فى نفوس الأتراك حب الحدائق والغرام بتنسيقها ، وذلك لأن شهرة الفرس بهذا الضرب من الفنون قديمة جداً أشار إليها اليونان فى سياق الحديث عن الأزهار والعناية بها . ولم تأخذ أوربا عن الأتراك الغرام بالأزهار وتنسيق الحدائق والعناية بها فحسب ، بل الرغبة فى الزخرفة والتنسيق خاصة بالزنزلخت والياسمين والشقائق وغيرها . وفى القرن السابع عشر نجد الهولنديين يولعون بهذه الزهرة حتى كانوا يتسابقون إلى دفع المبالغ العظيمة فى سبيل الحصول على أندر الأنواع وأجملها كما كان الحال أيضاً فى القرن الذهبى بتركيا ، فالمؤرخ التركى المعاصر أحمد رفيق ألف كتاباً أسماه (Lale sefaheti) تحدث فيه عن الشقائق والمغامرة فى سبيلها ، فقد وصف الشاعر فى كتابه هذا معتمداً على المراجع القديمة التى كانت تحت تصرفه ولع العثمانيين وجنونهم فى سبيل اقتناء هذه الزهرة ، أما لفظة (تولب tulipe) فهى الفارسية (دليند) ومنها اشتقت كلمة (تربان turban) . ومن الزهور الأخرى التى أخذتها أوربا عن الشرق أجمل وأحسن أنواع الورود ، فالوردة الدمشقية جلبها الصليبيون من دمشق إلى فرنسا ، ومنها انتشرت فى أوربا وقد ارتفعت قيمتها فى ألمانيا لاستخراج زيتها (١٩٨) ، أما بصيلات الزهرة المعروفة باسم

— كيزر كرون — أو — فى فريتيلاريا امبريا ليس — فقد انتقلت فى منتصف القرن السادس عشر من فارس إلى القسطنطينية ومن هناك إلى حدائق القيصر فى فينا ومن ثم إلى سائر أجزاء أوربا ، ويذكر (شومان) و (جلج) فى كتابهما عن مملكة النباتات أن حدثاً جديداً طرأ على زراعة الورد واقتنائه بإدخال الأنواع الغريبة الجميلة التى تنبت فى شرق آسيا والتى تنحدر فى الأصل من الوردة المعروفة باسم الوردة الهندية (روزا أنديكا) فعن طريقها عرفت ألمانيا طائفة من الورود الجميلة التى تزين اليوم حدائق الورد الألمانية ، ومن بينها الوردة المعروفة باسم وردة (الشاى) ، و إذا ذكر الشرق وأثره فى هذه الناحية يجب أن تذكر الصين حيث نجد هناك الزهرة المعروفة باسم (بايونى) كملكة للزهور ، وقد عرض للوردة (متياس يعقوب شليدن) فى كتابه عن الوردة فذكر مجموعة من الورود التى انتقلت من الشرق إلى الغرب مع تواريخ استيطانها أوربا وجاء فى ص ٢٩٤ من نفس الكتاب أن عام ١٧٨٩ يعتبر من أهم الأعوام التى يجب أن تسجل فى تاريخ زراعة الورود فى أوربا إلا أن عام ١٨١٠ أهم وأعظم ، وذلك لأن أوربا أخذت فى ذلك العام توجه عناية خاصة لتنظيم الحدائق وتنسيقها كما اهتمت بزراعة الوردة المعروفة باسم وردة (الشاى) التي هى عبارة عن نوع ينتمى إلى فصيلة الوردة المعروفة باسم الوردة الهندية ، فقد وصلت هذه الوردة فى ذلك العام إلى انجلترا كما جاءتها عام ١٨٢٤ من كلكتا الوردة المعروفة باسم وردة الشاى الصفراء ، كذلك زهرة الكاميليا التى تسمى (تياجا بونيكا) والتى هى قريبة من فصيلة وردة الشاى ، نزحت من وطنها الأصلى شرق آسيا إلى أوربا فى أواخر القرن السادس عشر (٢٠٠) ومن الصين جاءت أوربا الشجيرات الجميلة التى تزين الحدائق والمتنزهات وخاصة ذلك النوع المعروف باسم (فورسيتيا) وتخرج شجيراته فى الربيع زهراً أصفر يشبه لون الكبريت ، وفى منتصف القرن السادس عشر

انتقلت شجرة الكرز من ترابزنت إلى فينا كذلك الأسليح (عشبة تشـبه الجرجير تنبت فى الرمل وقيل هو نبات سهلى ذو ورقة دقيقة لطيفة وسنفة محشوة حبـاً كحب الخشخاش) (كتاب النبات والشجر للأصمعى ص ٣٠) ذات الرائحة الجميلة جاءت من مصر ويقال إنها انتقلت عام ١٧٥٢ من أفريقيا إلى إنجلترا.



الشرق أخذت أوربا كثيراً من الحيوانات مثل الكلب الصيني الصغير

وعن الجسم الذى انتقل إلى انجلترا ، ويطلق عليه الإنجليز (شين) كما انتقلت من خراسان إلى فرنسا عام ١٥٢١ أنواع القطط المعروفة باسم أنقرة . وجلبت انجلترا عام ١٦٩١ السمك الأحمر . أما تربية الديوك البرية ، فقد انتشرت فى أوربا انتشاراً كبيراً حتى أنه كان يكاد لا يخلو منها بيت أمير خاصة أيام اهتمام أوربا بالصين وشغف الغربيين بكل ما هو صينى . ويظهر أيضاً أن العناية بالصقور جاءت إلى أوربا عن طريق الشرق ، ففى اليابان نجد صيد الصقر يظهر أيام حكم القيصر (ننتوكوتنو) (٣١٣ — ٣٩٩ م) (٢٠٢) . والتاريخ يحدثنا أن فريدريش الثانى من أسرة هوهنزولرن وجه اهتماماً كبيراً إلى الصقور وكان فى اهتمامه هذا مقتدياً بالعرب ومعجباً باهتمامهم بها حتى استخدم القلانس لأجل الصقور والدجاج . والطاووس من طيور الهند. أما وطن معمل التفريخ فمصر وعن الأخيرة أخذت أوربا هذه الصناعة كما جاء هذا فى كتاب أسفار (ريتر) فقد تحدث صاحب هذا الكتاب عن رحلة قام بها لمصر عام ١٤٦٠ م وجاء فى وصف هذه الرحلة : وغير بابلون نجد مصر القديمة وهى مدينة توجد بها معامل كثيرة للتفريخ ، وذلك بوضع البيض فى أفران ذات حرارة خاصة وبعد مضى زمن تفقس الكتاكيت وتعرض للبيع . . . ونفس هذا الخبر يذكره (جريملزهوزن) على لسان (سيمبليتسيسيموس) الذى أرسله إلى مصر عام ١٦٩٩م . وفى القرن الثامن عشر نجد (أدلينج) يكتب مقالا عن الحمام الزاجل يعترف فيه أن الشرق سبق الغرب فى استخدامه ، والواقع أن مصر عرفته قبل أوربا بما لا يقل

عن ألف عام (٢٠٣) . ومن المناظر المصرية القديمة التى عثر عليها تلك التى تفيد أن هناك بعض الحيوانات المستأنسة مثل السِّمْع والفيل الأفريقى الذى استأنسه اليونيون . وهذان الحيوانان إذا استثنينا الفيل الهندى من الحيوانات البرية اليوم . وتستخدم قبائل القرغيز النسر الكبير ، ويستخدم الفرس أنواعاً مختلفة من البوم فى الصيد ، واليابانيون نوعاً من السمك يعوم ويغطس ، وقد قلده بعض سكان جنوب حوض الرين . والتاريخ يحدثنا أيضاً كيف أن قدماء المصريين استأنسوا أنواعاً كثيرة من الأوز . ويستخدم علماء الصين وفنانوهم القردة لسحق الألوان وحمل الماء كما استخدمها قدماء المصريين فى حمل آنية المراهم والعطور للسيدات أو للسير خلف الرجال ، مثلها كمثل الكلاب اليوم ، وفى غير هذه الأغراض استخدمت فى مصر أيضاً فى جنى التين من الشجر وتسليمه للرجال لوضعه فى السلال (٢٠٤) . أما ماعز أنقرة الشهير فلم يرد له ذكر فى المصادر الأوربية القديمة مما يرجح فكرة أن الترك هم الذين جاءوا به إلى آسيا الصغرى . وأغنام مرينو فهى كما يدل عليها اسمها قد أخذت عن بنى مرين المقيمين فى جوار تلمسن (٢٠٥) . والحصان العربى أجود أنواع الخيول ، وإذا ذكرت هذه الأشياء وجب ألا تنسى مجهودات الأجيال السابقة التى بذلت فى سبيل تهذيبها وترقيتها .

لكن ليست فقط مناظر أوربا الزراعية هى المتأثرة بالشرق بل الطبيعية أيضاً فقد جرت العادة أن بعض الأعشاب والحشائش تتنقل مع الشعوب ، وتقتفى أثر الجيوش ، ولا أدل على ذلك من أن العشب المعروف باسم (أو يسيلديوم) السورى عبارة عن تزاوج بين وردة أريحا ونبت آخر قريب منها، وهذا العشب كثيرالانتشار فى المناطق الممتدة من حصون المجر حتى أسوار فينا ، حيث كانت تنتهى حدود الدولة العثمانية الأبدية . أما بذور هذه الأعشاب فلم تبذرها يد إنسان بل أكياس

علف الخيول ، فهى التى حملتها من مواطنها الأصلية ، وهى التى حافظت عليها طول تلك المسافات الشاسعة ، وهى التى قامت ببذرها . وقد قام الأستاذ (زمرمان) بدراسة دقيقة وافية لهذه الأعشاب فبدأ بأماكن نزول الغجر وتتبع انتشار هذه الأعشاب حتى بلغ وطنها الأصلى وهو بلاد الهند الشرقية التى منها خرجت تلك الشعوب الغجرية واتجهت نحو أوربا . كذلك يقال إن زهرة اللوتس المصرية جاء ببذورها طائر مائى أثناء هجرته وهى تنبت الآن فى — دوتسنتيش — بمدينة نورنمبرج بألمانيا ولو أنها تجمد فى الشتاء . وفى العصر الجليدى لم توجد فى ألمانيا الفراشة ، وقد هاجرت إليها من جنوب سيبيريا فى فترات متقطعة . كذلك الطيور فلولا الصيد يسقطها لأصبحت لدى الغرب مجموعات كثيرة من طيور متعددة الألوان لجأت إلى أوربا لتبحث لها عن وطن جديد ، أما الطائر المعروف باسم الكوكوك فقد عرفته ألمانيا منذ عصور قديمة جداً مما يدل على أن انتقاله إلى تلك البلاد كان منذ أزمنة بعيدة ، و ينتمى هذا الطائر إلى فصيلة مختلفة الألوان تشتمل على ما يقرب من مائتى نوع .

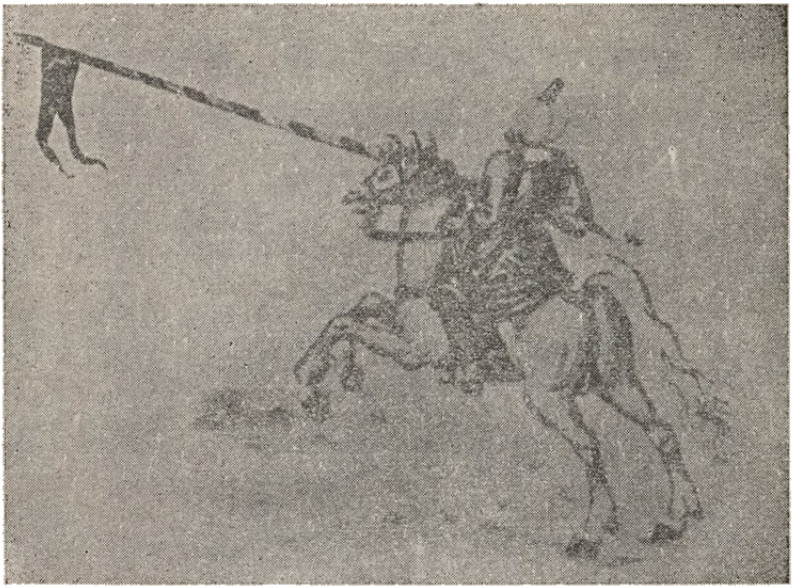
وليس فقط كساء الأرض قد جاء أوربا عن الشرق بل كساء الإنسان أيضاً ، كما يظهر هذا من الملابس التي وجدت على الجثث التي عثر عليها في بعض المستنقعات والمحفوظة الآن بمتحف (كيل) للآثار القومية القديمة . فبعض هذه الأقمشة — كما ثبت أخيراً — صناعة محلية وبعضها الآخر مستورد من أمريكا وتلك الملابس لا تمت إلى الملابس اليونانية أو الرومانية بصلة ما ، وعلى العكس فهي تختلف عنها اختلافا بيناً . أما السراويل كما تظهر من ملابس هـذه الجثث فشرقية قد ترجع إلى فارس ، ولا نجد ما يشبهها عند الشعوب الأوربية القديمة . والملابس الشعبية الزاهية والمتعددة الألوان تذكرنا كثيراً بالملابس الصقلبية الشرقية . والسيدات الألمانيات يتحدثن عن الـ (كيمونو) ، وعن أكمامه ، وقد جاءت هذه الملابس وهذا النوع من صناعتها عن اليابان خاصة عقب انتصارها على روسيا ، كما أن السيدات الألمانيات أخذن عن اليابانيات طرق ترتيب الشعر وتزيينه . ومن نصف قرن مضى كان البشليق التركي كثير الانتشار كما كانت شيلان الكشمير رائجة بين أفراد الجيل السابق . واليوم نجد القميص (البلوز) البلغاري ، وقبعات السيدات تزين بريش طيور شرقية كعصفور الجنة أو الطاووس ، والهند ما زالت إلى اليوم تصدر ريش الطاووس ، كما كانت تفعل في العصور الوسطى ، وضفائر الشعر التي لبسها الرجال خاصة الفرسان ورجال الجيش قد تكون صينية الأصل . وقد ثبت أخيراً أن الشرق أسبق من الغرب إلى معرفة النظارة ، أما الأحجار التي استخدمها القياصرة الرومانيون فلم تكن عدسات ، إذ أن أول من عرف العدسة

النظاراتى العربى الشهير ابن الهيثم . أما أوربا فلم تعرفها قبل عام ١٢٧٠ م . وقد أثبت (برتولد لوفر) فى بحثه القيم عن تاريخ النظارة (٢٠٦) أن الصين عرفت النظارة منذ زمن بعيد عن طريق التركستان ، وهو يرجح أن الوطن الأصلى للنظارة هو بلاد الهند . ومن الملابس الرسمية القديمة نذكر القلبق الذى هو جزء من غطاء رأس الفرسان واسمه يدل على أصله الشرقى ، وهو مأخوذ من الجزء المتدلى من غطاء الرأس عند جنود الانكشارية ، وقد فهم قديماً خطأ بأنه كم الحاج بكتاش (٢٠٧) ويرجح أن هذا القلبق جاء عن طريق فرسان المجر أو فرقة الانكشارية البولونية، ويجب ألا يغيب عن ذهن الألمان أن فى جيشهم فرقة بروسية تركية الأصل مطلع نشيدها :

نحن أولان بروسيا من يجهلنا .

إننا مشهورون فى تاريخ الحروب .

فاللفظ التركى معناه (شاب) والذى حدث أن الجراف (بريل) فكر يوماً ما فى محاربة فريدريش الأكبر ، فقرر لتنفيذ فكرته هذه الاستعانة بفرسان بولونيين ليقوموا بمهاجمة فريدريش هذا لكن فى اللحظة الأخيرة قرر الاستعاضة عنهم بفرقة من حملة المزاريق من البوسنة ، ويطلق على أفرادها البوسنياك أو (أولانن) وأحضرهم إلى درسدن . لكن حدث أن الجراف بريل أخلف وعده ، ولم يبق أمام هؤلاء الجنود إلا تركه والانضمام إلى جيش عدوه فريدريش الأكبر حيث كونوا الفرقة المعروفة باسمهم ، والتى ما زالت تعرف فى الجيش البروسى بفرقة الأولانن (٢٠٨) . وأسلحة هذه الفرقة تشبه سلاح الفرقة المرتزقة الموجودة فى الجيش التركى والتى تعرف باسم (صباهى) والتى يمتاز سلاحها بهذه الراية الصغيرة . وهنا أقدم صورة مأخوذة عن رسم يرجع إلى القرن السادس عشر وهو محفور فى نحاس محفوظ بدرسدن بمتحف الآثار النحاسية ، ويرجح أنه من عمل (لوريش) (٢٠٩) .





أما الصورة الثانيـــة فتمثل (أولان) من الحرس السكسونى .

عالج جورج يعقوب مسائل قليلة ، وترك عمداً فصولا كاملة تتعلق بالعلوم الطبيعية والطب والتمريض والفلسـفة والتصوف ، وذلك لأن العلامة (ايلهرد فيـدمان) أسـتاذ جامعة (ارلنجن) عالج هذه المواضيع كخير عالم يعتقد فى نفسه الكفاءة اللازمة لدراستها ، وعلاوة على اسـتعداده الفطرى واطلاعه الواسع ، فقد صرف سـنوات عديدة متتبعاً هـــذه البحوث حتى لم يترك زيادة لمستزيد ، فمؤلفاته الفنيـة حول تاريخ العلوم الطبيعيـة التى نشرت فى أبحاث جمعيـة العلوم الطبيعية والطبية بمدينة « أرلنجن » تربو على السبعين ، وتكاد لا تخلو مجلة من مجلات العلوم الطبيعية وما إليها من بحوثه المستفيضة الدقيقة التى تعنى خاصة بالناحية التاريخيـة معتمدة بصفة خاصة على المصادر العربية .

ويقول جورج يعقوب إنه ما جمع هـذه المعلومات ، ولا قام بهـذه الدراسات إلا ليخدم العلم والحقيقة ، ويقاوم هذا التيار الخاطىء الذى ينسب كل شىء إلى العالم القديم إلى اليونان واليونانيين كما يتبين ذلك واضحاً من الكتاب الذى نشره (تويبنر) أخيراً واسمه من القديم إلى الحديث .

ويلح جورج يعقوب فى ألا يتبـادر إلى ذهن القـارىء فى أنه ما كتب هذا الكتاب إلا ليجعل من الشرق جنة ومن اليونان جحيما . والواقع أن أوربا إذا أرادت أن تعنى بدراسة ثقافتها وحضارتها وتقف على العناصر المكونة لها والتى مدتها فى كل تلك العصور بالحيوية الضرورية اللازمة لها ، وجب عليها أن تعنى بالعناصر الأمريكية والأوربية والكلتية والشمالية ، فمـا كانت ثقافة شعب من الشعوب قائمة على عنصر واحد فقط ، وما كانت هذه الثقافة نتاج عقلية شعب واحد بمفرده بل هى عبارة عن مجموعة عناصر لمجموعة من الشعوب . والبحث العلمى يجب ألا يصبغ بصبغة القومية

المتعصبة بل يجب أن يسمو و يصبح عالمياً . وكما أن عالم النبات لن يستطيع أن يقصر دراسته على أسرة نباتية واحدة كذلك الحال مع سائر العلماء سواء منهم عالم اللاهوت أو اللغات أو الفنون فإن العالم من هؤلاء وأمثالهم إن لم يكن ملماً بأطراف بحثه وخبيراً بكل ما يتصل به خرج بحثه ناقصاً مشوهاً .

والحقيقة التى يجب أن يشار إليها هنا هى أن الإنسان يجب عليــــه ألا يخلط بين المثل العليا والحقيقة ، فإدخال الفلسفة اليونانيــة فى مدارس الجمناز يوم الألمـانية أضر أكثر مما أفاد وذلك لأن دراسة هذه الفلسفة كانت قاصرة على قراءة ما يقرب من ثلث (بروطاغوراس) لأفلاطون فى اليونانية مع وجوب العناية بالمسائل السطحية فقط . أما فيما يتعلق بالدراما وقيمتها فلم تكن فكرتها واضحة لا عند المدرس ولا عند التلميذ . إذ كان ينقضى الفصل الدراسى ولا يخرج التلميـذ إلا بقراءة بعض صفحات من (أياس) . أما الثقافة اليونانية أو الفن اليونانى فلم يدرس الطالب عنهما شيئاً . لـكن كم تكون الفائدة التى يجنيها الطالب عظيمة لوغير هـذا النظام وحل محله نظام آخر يمكن التلميذ من الاطلاع على عدد من التراجيديات والـكوميديات اليونانيــة لـكن لا فى لغتها الأصلية بل مترجمة كما فعل جوته وشيللر ، وتصرف العناية إلى فهمها ودراستها دراسة عميقة . إن مثل التلميذ وهو خاضع لهذ النظام العقيم كمثل رجل من الإسكندرية قرر أن يقوم برحلة إلى الأقصر فأنفق معظم نقوده فى الاســتعداد للرحلة ولم يتبق له من مال أو زمن إلا ما يسمح له بالوصول إلى أسيوط . التلميذ يعنى فى المدرسة بأمثال (سرفيوس تليوس) و (تلوس هوستيليوس) ومن إليهما من قادة الفـكر الرومانى عند دراسة اللاتينية والفرنســية والتاريخ ، وقد يحتاج إليهما و إلى أمثالهما فى دراسة اللغة الألمانيــة أو العربية أيضاً ، وهو يعتقد فى نفس الوقت أن هذه الدراسة باطلة يخرج منها وهو ما زال متعطشاً إلى دراسة أشــياء أخرى أنفع له وأجدى مثل

تلك الأحداث التاريخية العظمى كقيام المستعمرات الهولندية أو الإنجليزية أو تطور أمريكا أو الشرق الصقلبي ، وفضلا عن هذا فالعناية التى توجه إلى هـذه الدراسات الـكلاسيكية لا تضعف من الشعور القومى فحسب بل تشيد حائطاً يفصل بين أفراد الشعب ، وذلك باستخدام بعض الألفاظ التى يرمى أصحابها إلى التقعر والتحذلق وهذه المفردات تحدث فجوة فى اللغـة ، وفى التفكير ، كما تفسد الدراسة الـكلاسيكية الذوق الأدبى والفنى ، وذلك لأن أحد الأدباء قد تسول له نفسه الكتابة فى أسطورة ميتة لا يستسيغها ذوق سليم ، ولا روح فيهـا ، والواقع أن المؤرخين يزيفون التاريخ لو حاولوا تجميل القبيح وتشويه الحقائق كما فعل مؤرخو الرومان مدفوعين بعامل الهوس القومى والجنون الوطنى كما يتبين ذلك من المصادر الموجودة اليوم . ومن الجدير بالذكر أن فى الشرق تكونت الموجات الثقافية العلميـة التى أدت إلى هذه الأحداث التاريخية العالمية التى جهلها كتاب العالم الـكلاسيكى وشعراؤه (٢٠٨) ، وكان من نتائج تلك الموجات أن هاجرت شعوب وكافحت حتى حطمت ذلك العـالم القديم وأقامت على أنقاضه هذه الدول التى تتصرف الآن فى مصاير العالم . ولما كان فهم خصائص الشعب حقيقة لا بد منهـا لفهم ثقافته وتاريخه أدركنا عدم إلمام العالم القديم بتلك الحركات الفكرية والتموجات الثقافية التى كان مركز هبوبها الشرق (٢٠٩) . ولعل السر فى هذا هو جهل شعوب العـالم الـكلاسيكي باللغات الأجنبيـة التى هى المفاتيح الوحيدة التى توصل الباحث إلى نفسية الشعوب وفهم تقاليدها والإلمام بعلومها نظرية كانت أو عملية (٢١٠) وليست اللغـات فقط هى التى جهلتها تلك الشعوب بل العلوم الطبيعية أيضاً القائمة على التجربة والملاحظة . فالتاريخ يحدثنا مثلا أن أرسطو اعتقد أن فى استطاعته تخليص ماء البحر من ملوحته عن طريق إناء من الشمع (٢١١) .

إن البشرية فى حاجة ماسة إلى التزود بمختلف الأسلحة لمواجهة الحياة ومتاعبها

وفى حاجة إلى أفق أوسع ونظرة للحياة أخرى غير تلك التى نجـــدها فيما يسمى (هيومانيزم) وليس لدينا من الوقت ما يسـمح لنا أن نمضى زمناً طويلا وأعواماً كثيرة فى سبيل دراسة حروب السبينيين والسمنيتيين بينما نهمل الأحداث التاريخية العالمية . إن اشتقاق كلمة (هيومانيزمس) غير واضح ، ومدلولها غامض ، ومجرد التفكير فى هذه الـكلمة قد يؤدى إلى توارد أفـكار خاطئة . فاليونان الأقدمون جهلوا أو لم يصلوا إلى كلمة تعبر عن الإنسانية وأولئك الذين يستخدمون لفظ (هيومانيزمس) يحاربون فى الواقع لأجل الوصول إلى مثل عليا نجدها واضحة جلية فى الصين ، ولا يقصد المؤلف هنا أن يقارن بين اليونان والصين ، ولا أن يقول إن الصين هى وطن المثل العليا ، وذلك لأن مثل هذه المقارنات قد تؤدى إلى قيام مثل هذه الفكرة التى تجول بخاطر كثيرين من الأوربيين ، وهى أن كل اثنين من الألمان إذا اجتمعا فإما يمتحن أحدهما الآخر أو يعده للامتحان ، ومن الجدير بالذكر أن الجراف (كيزرلينج) دهش عندما رأى أن المعبد الصينى لا يقل روعة عن المعبد اليونانى ، وأن فـكرة الإنسانية سائدة فى الصين سيادتها فى بلاد اليونان (٢١٢) وقد ذكر هذا الجراف فى كتابه رحلة فيلسوف : يقرر لغو يو أوربا أن الدراسات الـكلاسيكية على جانب عظيم من الأهمية ، وأن الشخص المثقف ثقافة كلاسيكية هو الذى يجيد اليونانية واللاتينية ، والخبير بشيشرون . وهذا الشخص فقط هو الذى يستطيع أن ينهض بكل ضروريات الحياة ومطالبها لـكن هذا خطأ ولا يطابق أوربا ، وذلك لأن عقلية اليونان أو الرومان ليست عقليتنا . . . : ولا يقتصر المؤلف على العبارات بل يقرر أموراً أخرى يجدها المطلع على كتابه الذى ألفه بعد قيامه برحلته العالمية التى مكنته من هذه الدراسة العميقة الدقيقة ، كما أدرك الزاوية الضيقة التى انحصرت فيها الثقافة الغربية . فالإنسان اليوم والجرمانى بصفة خاصة يفهم المثل الأعلى للفظ (إنسانية) على أنه التطور الشامل

لكافة الشعوب مع منحها كل الوسائل الضرورية لبلوغ هذا التطور ولا أصدق من كلمة (جامعة) للتعبير عن هذه الرغبة . إننا نرجو أن تحقق عبارة (إنسانية) كما نفهمها نحن أبناء هذا الجيل أعنى أن تزول الفوارق بين الشرق والغرب وألا يحول اللون دون تحقيق المساواة بين سائر البشر .

فى حدود هذه المواضيع عرض المؤلف لبحث أثر الشرق فى الغرب وفى حدود هذه المواضيع أيضاً تصرفت أنا فى ترجمة الكتاب وفى إعداده فى صورته الحالية التى تتفق وتاريخ إخراجه . أما سائر المواضيع الأخرى سواء منها تلك التى أشرت إليها فى ثنايا هذا الكتاب أو لم أشر فقد تركتها جانباً راجياً أن تتاح لى الفرصة فى المستقبل لأقدمها مستقلة للقارىء العربى .

ولا يفوتنى أن أقدم جزيل شكرى للجنة البيان العربى لقيامها بنشر هذا الكتاب ولمطبعة بنك مصر للمجهود الذى بذلته لإخراجه فى أحسن صورة ممكنة .

بعض مصادر الكتاب

١ — KARL SCHUCHARDT : *Alteuropa,* 1919.

٢ — LEO FROBENIUS : *Vom Kulturreich des Festlandes,* 1923.

٣ — *Reallexikon der germanischen Altertumskunde,* Art. Getreide.

٤ — *Verhandlungen der Berliner Gesellschaft für Anthropologie, Ethnologie und Urgeschichte,* Jahrg., 1877.

٥ — G. BERENDT : *Die pommerllischen Gesichtsurnen,* Band 1,1872.

٦ — *Nachrichten über deutsche Altertmuskunde,* 1891, Heft 4.

٧ — H. CONWENTZ : *Das westpreussische Provinzial-Museum,* 1905, Tafel 57.

٨ — *Der anthropologischen Sektion der Danziger Naturforschenden Gesellschaft,* 1885.

٩ — v. MARTENS : *(Cypraea pantherina).*

١٠ — Globus 1874 ; ANDREE, *Geographie des Welthandels,* 1. Band.

١١ — *Hildebrands Teekninger ur Svenska Statens Historiska Museum,* Heft 3.

١٢ — Ibid.

١٣ — Archives d'études orientales Vol. 8, Upsal 1914.
BERTHOLD LAUFER : *The Bird Chariot in China and Europe,* 1905.

١٤ — Tiesenhausen im 3. Bande der Wiener Numismatischen Zeitschrift, 1871

١٥ — PRAGORT : *Samarqand.*

١٦ — Rapport des séances annuelles de la Société Royale des antiquaires du nord 1838-1839.

١٧ — NÖBBE : Münzfunde aus dem 8 — 10. Jahrg., 1923.

١٨ — JULIUS FRIEDLAENDER : *Der Fund von Obrzyeko,* 1844.

١٩ — HUGO GRESSMANN : *Vom reichen Mann und armen Lazarus,* 1918.

٢٠ — OSKAR MUENSTERBERG : *Chinesische Kunstgeschichte.*

٢١ — E. DIEZ : *Studien zur Kunst des Ostens,* 1893.

٢٢ — Reizenstein : Histor. Ztschr. 126, S. 30.
٢٣ — Ibid.
٢٤ — Th. Schultze : *Der Buddhismus als Religion der Zukunft.*
٢٥ — H. Winckler : *Die babylonische Kultur in ihren Beziehungen zur unsrigen,* 1902.
٢٦ — Browne : *A Literary History of Persia.* 1902.
٢٧ — F. Kluge : *Die Heimat der Brieftaube.* Frankfurter Zeitung, Januar 1906.
٢٨ — Reichwein : *China und Europa,* 1923.
٢٩ — E. Littmann : *Morgenländische Wörter im Deutschen,* 1920.
٣٠ — Jdeler : *Untersuchungen über den Ursprung und die Bedeutung der Sternnamen,* 1809.
٣١ — Carl Schuze : *Die biblischen Sprichwörter der deutschen Sprache.*
٣٢ — Exodus 6,23
٣٣ — Bock : *Die Kleinodien des heiligen römischen Reiches deutscher nation,* 1864.
٣٤ — G. Jacob : *Märchen und Traum.*
٣٥ — Hans Naumann : *Primitive Gemeinschaftskultur,* 1921.
٣٦ — Lidzbarski : *Der Ursprung der nord-und südsemitischen Schrift.*
٣٧ — G. Bühler : *Indische Palaeographie,* 1896.
٣٨ — R. Stübe : *Der Ursprung des Alphabets und seine Entwicklung,* 1922.
٣٩ — K. Sethe : *Die neuentdeckte Sinai-Schrift.* 1918.
٤٠ — V. Bissing : *Die Datieruug der Petrieschen Sinaiinschriften.* 1920.
٤١ — Th. Nöldeke : *Delectus veterum carminum Arabicorum.*
٤٢ — Wünsche : *Der Babylonische Talmud,* 1886.
٤٣ — Th. Nöldeke : *Geschichte des Qorans,* 1936.
٤٤ — M. Haberland : *Zur Geschichte der Null.* Osterr. Monatass. f. d, Orient 189.
٤٥ — Ed. Seler : *Gesammelte Abhandlungen zur amerikannischen Sprach-und Altertumskunde.*
٤٦ — Compare english “cipher”.
٤٧ — Karl Krumbacher : *Woher stammt das Wort Ziffer?*

٤٨ — F. Woepeke : *Mémoire sur la propagation des chiffres indiens,* J. A. VI. Série, 1863.
٤٩ — Revue archéologique, 1879.
٥٠ — Legarde : *Woher stammt das(x) der Mathematiker,* 1884.
٥١ — *Sur l'origine des nos chiffres.* lettre de M. L. Am. Sédillot à M. le prince Balthauser Boncompagni, 1865.
٥٢ — *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes,* 1905.
٥٣ — *Journal of the Asiatic Society of Bengal,* Vol. VII.
٥٤ — *Bühlers indischer Palaeographie.*
٥٥ — Gotthold Gundermann : *Die Zahlzeichen,* 1899.
٥٦ — Ja'qûbîs Geschichtswerk.
٥٧ — Hermann Schubert : *Zählen und Zahl,* 1887.
٥٨ — J. Schmidt : *Die Urheimat der Indogermanen und das europäische Zahlsystem,* 1890.
٥٩ — H. Vogt : *Haben die alten Inder dên Pythagoraischen Lehrsatz,* 1906.
٦٠ — A. Wylie : *Magnetic Campass in China,* 1897.
٦١ — E. Wiedemann : *Zur Geschichte des Kompasses bei den Arabern.*
٦٢ — Bâveru-Jâtaka : *Jâtakam übers. von Dutoit.*
٦٣ — Landnàmabòk.
٦٤ — Léopold de Saussure : *L'origine de la rose des vents et l'invention de la boussole.*
٦٥ — De Goeje : *Quelques observations sur le feu Grégois,* 1904.
٦٦ — E. V. Lippmann : *Entstehung und Ausbreitung der Alchemie,* 1919.
٦٧ — J. v. Romocki : *Geschichte der Explosivstoffe . .,* 1895.
٦٨ — *Zeitschrift für Naturwissenschaft,* Bd. 71, 1898.
٦٩ — Stansislas Julien bei Reinaud et Favé, du feu grégeois. . , J. A. 1849.
٧٠ — Raschîdeddîn : ed. Quatremère, Paris 1836.
٧١ — E. Wiedemann : *Beiträge zur Geschichte der Naturwissenschaften,* 1906.
٧٢ — O. Guttmann : *Das älteste Dokument zur Geschichte des Schiesspulver Zeitschrift für angewandte Chemie,* 1904.
٧٣ — Furtwängler : *Antike Gemmen.*

٧٤ — F. Hirth: *Die Erfindung des Papiers in China*, 1890.
٧٥ — Globus: Bd. 82, 1902
٧٦ — Karabacek: *Das Arabische Papier.*
٧٧ — Wiener Sitzungsber: Philos. hist. Klasse, 148. Band 1904.
٧٨ — R. Kobert: *Uber das älteste in Deutschland befindliche echte Papier,* 1911.
٧٩ — Karabacek: *Das arabische Papier.*
٨٠ — J. Wiesner: *Die Faijûmer und Uschmûneiner Papiere*, 1887.
٨١ — Grünerts Arabische Lesestücke.
٨٢ — Cicerone: 15. Jahrg. Heft 22, November 1923.
٨٣ — Heinrich Schurtz: *Urgeschichte der Kultur.*
٨٤ — R. Forrer: *Les Imprimeurs des Tissus*, 1898.
٨٥ — Hampes Katalog der Gewebesammlung des Germanischen Nationalmuseum.
٨٦ — Karabacek: *Führer durch die Ausstellung* (Papyrus Eazherzog Rainer), 1891.
٨٧ — Transactions of the Asiatic Society of Japan, Vol. X, 1882.
٨٨ — Kwanho zattschô und Kokoku schobatsu.
٨٩ — Schiûko zissshiu, Band 1.
٩٠ — Journal of the China Branch of the Royal Asiatic Society, 1885.
٩١ — Erdkunde, 2. Teil, 1832.
٩٢ — G. Kuth: *'Jigs-med nam-mk'a,* 1896.
٩٣ — Abhandlungen der köngl. Preuss. akad. d. Wiss. 1910.
٩٤ — B. Laufer: *Zur buddhistischen Literatur der Uiguren,* 1907.
٩٥ — Oesterreichische Monatsschrift für den Orient, 1890, Jahrg, 16.
٩٦ — Ibid.
٩٧ — Klapproth: *Lettre à M. le baron A. de Humboldt sur l'invention de la boussole,* 1834.
٩٨ — Wittenbach: *Schriftwesen in Mittelalter.*
٩٩ — T. O. Weigel und A. Zestermann: *Die Anfänge der Druckerkunst,* 1866.
١٠٠ — O. Münsterberg: *Chinesische Kunstgeschichte.*
١٠١ — P. Kristeller: *Kupferstich und Holzschnitt in vier Jahrhunderten.*

١٠٢ — Zentralblatt für Bibllothekswesen, 12 Jahrg.
١٠٣ — Wegweiser durch das Germanische Museum, 1901.
١٠٤ — Elementum, 1899.
١٠٥ — G. Zedler: *Von Coster zu Gutenberg,* 1921.
١٠٦ — Wattenbach: *Schriftwesen im Mittelalter.*
١٠٧ — Gutenbreg: *Festschrift,*
١٠٨ — Journal Asiatique, IV. 1847.
١٠٩ — Transations of the Asiatic Society of Japan X, 1882.
١١٠ — Ibid.
١١١ — H. Winkler: *Die babylonische Kultur in ihren Beziehung zur unsrigen,* 1902.
١١٢ — Journal Asiatique, 1822.
١١٣ — Quatremère: Notes et extraits XIV.
١١٤ — Vullers Lexicon Persico-Latimum s. v. 'amel.
١١٥ — M. Weber: *Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie,* 1920.
١١٦ — Grasshoff: *Das Wechselrecht der Araber,* 1899.
١١٧ — Reichwein: *China und Europa,* 1923.
١١٨ — Ibid.
١١٩ — Ibid.
١٢٠ — Friedriech Carl Andreas Festschrift, 1916.
١٢١ — A. Neuberger: *Die Technik des Altertums,* 1919.
١٢٢ — Reins Japan, 1886.
١٢٣ — Sarre: *Islamischs Bucheinbänden,* 1923.
١٢٤ — Reichwein: *China und Europa,* 1923.
١٢٥ — Die Lackindustrie in Ispahan schildert Thevenot, 1727.
١٢٦ — Reichwein: *China und Europa,* Berlin 1923.
١٢٧ — Graul: *Ostasiatische Kunst und ihr Elnfluss auf Europa.*
١٢٨ — Ibid.
١٢٩ — Ibid.
١٣٠ — Lehmann-Haupt: *Zur Herkunft der ionischen Säule,* 1913.
١٣١ — Die Abb. 26, 28 bei Puchstein.
١٣٢ — Münchner Jahrbuch der Bildenden Künste, 1913.
١٣٣ — Neue Jahrbücher für das klassische Altertum, 8. Jahrg., 1905.

١٣٤ — A. GOSSET : *Les couples d'Orient et d'Occident,* 1890.
١٣٥ — DIEZ : *Studien zur Kunst des Ostens,* 1923.
١٣٦ — HASAK : *Die Entstehung der islamischen Baukunst,* 1920.
١٣٧ — STEINRECHT : *Schloss Marienburg,* 1922.
١٣٨ — ZIESEMER : *Braunes Beiträge,* 47 Band. 1923.
١٣٩ — F. LASKE : *Der ostasiatische Einfluss auf die Baukunst,* 1909.
١٤٠ — B. SCHMID : *Die Bau - und Kunstdenkmälcr des Kreisen Marienburg,* 1919.
١٤١ — Untersuchungen zur deutschen Staats-und Rechtsgeschichte, 71 Heft.
١٤٢ — R. GRAUL : *Ostasiatische Kunst und ihr Einfluss auf Europa.*
١٤٣ — H. BOTHMER : *Jahrbuch des Deutschösterreichischen Orientklubs,* 1903.
١٤٤ — W. PIETSCH : *Die Maler des Orients,* 1895.
١٤٥ — L. MOHRENWITZ : *Delacroix und die Romantik in Frankreich,* 1913.
١٤٦ — R. MUTHER : *Geschichte der Malerei* im 19. Jahrg, 1895.
١٤٧ — F. HOMMEL : *Die älteste arabische Barlaam-Version,* 1887.
١٤٨ — Abhandlungen der Preussischen Akad. d. Wiss. Jahrg, 1918.
١٤٩ — H. NAUMANN : *Primitive Gemeinschaftskultur,* 1921.
١٥٠ — ETHÉ : *Essays und Studien,* 1872.
١٥١ — Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, Bd. 14.
١٥٢ — M. HABERLANDT : *Der altindische Geist,* 1887.
١٥٣ — A. FORKE : *Die indischen Märchen und ihre Bedeutung* 1911.
١٥٤ — KUGLER : *Geschichte der Kreuzzüge*
١٥٥ — G. JACOB : *Schanfara — Studien,* 1923.
١٥٦ — BARON CAY V. BROCKDORFF : *Die einsame Insel,* 1917.
١٥٧ — GEIBLS : Der Junge Tscherkessenfürst, 1859.
١٥٨ — Deutsche Viertel Jahrsschrift für Literaturwissenschaft, 1923.
١٥٩ — GOETHE : Jahrbuch, 8. Band, 1887.
١٦٠ — WILAMOWITZ : *Reden und Vortraege,* 1902.
١٦١ — W. BEOWULF : *Das Lied Volkers in Jordans Nibelungen.*

١٦٢ — Graf Schack: *Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien.*
١٦٣ — Kleinere Schriften. Bd. 2 und 3.
١٦٤ — G. Jacob: *Moderne Schattenspiele,* (Die Woche, Heft 48, 1907).
١٦٥ — Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesell. Bd. 43.
١٦٦ — M. Haberlandt: *Der altindische Geist,* 1887.
١٦٧ — Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesell. Bd. 41.
١٦٨ — Sa'dîs Bustân 11 v. 185, ed. Graf, S. 157.
١٦٩ — Sa'dîs Bustân 11 v. 70, ed. Graf, S. 145.
١٧٠ — Ausg. Brockhaus Nr. 117, 7.
١٧١ — Haberlandt, Der altindische Geist.
١٧٢ — G. Schleoel: *Chinesische Bräuche und Spiele in Europa,* 1869.
١٧٣ — Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesell. Bd. 41.
١٧٤ — F. Jahn: *Alte Deustche Spiele.* 1923.
١٧٥ — Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesell. Bd. 53.
١٧٦ — Luise Klebs: *Die Reliefs des alten Reiches,* 1922.
١٧٧ — G. Schleoel: *Chinesische Braeuche und Spiele in Europa.*
١٧٨ — Qazwînî Bd. 1 1.
١٧٩ — Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, Bd. 43
١٨٠ — Vambéry: *Die primitive Kulture des turko-tatarischen Volkes.*
١٨١ — Strutt: *The Sports and Pastimes of the People of England.*
١٨٢ — C. Sachs: *Die Musikinstrumente Indiens und Indonesiens,*1914.
١٨٣ — Mitteilungen der Deutschen Gesellschaft für Natur — und Völkerkude Ostasiens., 7. Band.
١٨٤ — Petschewi, Ta'rîh 1, Konstantinopel 1283 h.
١٨٥ — A. Hasterlik: *Von Reiz - und Rauschmitteln*: 1918.
١٨٦ — P. Kraensel: *Entwicklung und gegenwaertiger Stand des chinesischen Teehandels* 1902.
١٨٧ — Kakuzo Okakura: *Das Buch vom Tee.*
١٨٨ — H. Weiomann: *Mykologie der Milch.* 1911.
١٨٩ — Flueckioer: *Pharamakonosie des Pflanzenreichs.*

١٩٠ — Hobson—Jobson. 1889.

١٩١ — HABERLANDT : *Der altindische Geist.*

١٩٢ — J. J. SAAR : *Ost - Indianische Fünfzehn Jaehrige Kriegsdienste,* 1672.

١٩٣ — ERMAN-RANKE : *Aegpyten.*

١٩٤ — F. HROZAY : *Das Getreide im alten Babylonien,* 1914.

١٩٥ — E. WIEDEMANN : Beiträge 51, 52, 55.

١٩٦ — Verslagen an Mededeelingen IV, 6, 1904.

١٩٧ — V. HEHN : *Kulturpflanzen und Haustiere,* 1911.

١٩٨ — J. BECKMANN : *Beitraege zur Geschichte der Erfindungen,* 1792.

١٩٩ — M. J. SCHLEIDEN : *Die Rose,* 1873.

٢٠٠ — DIETRICH : *Geschichte des Gartenhauses,* 1863.

٢٠١ — Ibid.

٢٠٢ — Mitteilungen der Deutschen Gesell. für Natur — und Völkerkunde Ostasiens. 10. Band. 1904.

٢٠٣ — PAPYRUS ERZHERZOG RAINER : *Führer durch die Ausstellung,* 1894.

٢٠٤ — KLEBS : *Die Reliefs und Malerein des mittleren Reiches.*

٢٠٥ — Dozys suppl. Art. ʻdwî.

٢٠٦ — B. LAUFER : *Zur Geschichte der Brille,* 1908.

٢٠٧ — Türkische Bibliothek, 9 Bd. 1907.

٢٠٨ — Wissenschaftliche Mitteilungen für Bosnien 1900.

٢٠٩ — Allg. Deutschen Biographie. Bd. 19.

٢١٠ — DE GROOT : *Die Hunnen der vorgeschichtlichen Zeit,* 1921.

٢١١ — Chemiker Zeitung. 1911, Nr. 127.

٢١٢ — GRAF KEYSERLING : *Reisetagebuecih des Philosophen,* 1921.

كشـــــاف

كتب أخرى للمؤلف

(١) التوطئة فى اللغة العبرية . القاهرة ١٩٤٠

(٢) التوراة عرض وتحليل . القاهرة ١٩٤٦

(٣) Agyptische Yolkslïeder. Stuttgart 1939

بحوث علميـــــة

(١) أداة التعريف فى اللغة العربيـــة (مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول المجلد السابع يوليه سنة ١٩٤٤)

(٢) الهمزة (مجـلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول العدد الثامن المجلد الأول مايو ١٩٤٦)

(٣) The Hebrew by the Samaritans (The Bulletin of the Faculty of Arts May 1942

(٤) Sauqf (Orientalistische Studien : Enno Littmann 1935).

استدراك

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤	٨	ست وعشرين	ستة وعشرين
١٥	١٧	خرية	خربة
١٥	٢١	ميناس	متياس
١٨	١٢	يرجع	ترجع
٢٤	١٣	أساوى	أماوى
٤٣	٧	قيل أن	قيل إن
٤٦	٤	معهدة	ممهدة
٨٠	٦	وأغدوا	وأغدو
٨٠	١١	مُهَرَّتهُ	مُهَرَّتهٌ
٨٠	١٢	مُرْمِلَ	مُرْمِلُ